

الحضارات الكبرى



# الآشور

الغفران

عمر احمل اليهود

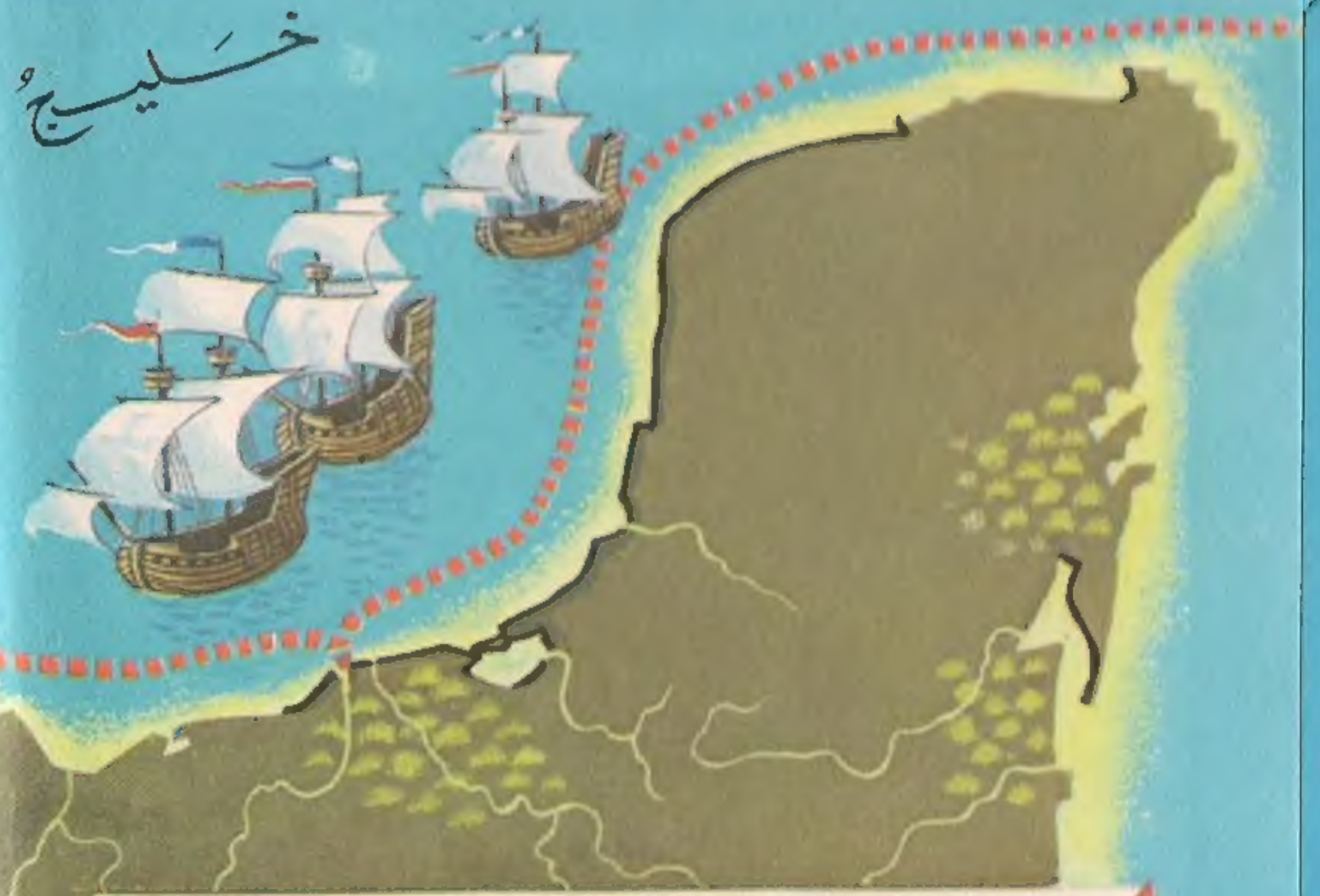
طولكرم

قرنم  
التاريخ ١-١-١٣٠٢





خَلِيجُ



← ٤٠٠ كم (٢٥٠ ميل) →

إمبراطورية الأزتيك

عملية كورتيز

المكسيك في ١٥١٩  
طولكرم  
١٥١٩-١٥٢١  
الفترة

تينوتشتلان

فيلا كروز



المحيط الهادي

# المكسيك في العام ١٥١٩

تُري هذه الخريطة بِلادَ المكسيك زمنَ الغزو  
الإسباني ، والطريقَ التي أتتْ بها كُورتيز  
في حَمَلَتِهِ .  
أمَّا الرِّسْمُ الجَانِبِيُّ فَيُري العاصِمةَ - الجَزيرةَ  
تينوتشتلان بِشبكةِ قنَواتِها وشَوَارِعِها .



قصور وديار كل  
قنوات  
طرق رئيسية



عمر احمد سمور

طولكرم

المحضارات الكبرى

الآزتك

تأليف : برنندا رالف لويس  
رسوم : روبرت آيتون  
ترجمة : الدكتور البير مطلق



مكتبة لبنان

الآزتك من الشعوب القديمة التي كان لها شأن عظيم في تاريخ قارة أميركا .  
ورغم ما دلت عليه تصرفاتهم ، أحيانا ، من بدائية ، فإنهم استطاعوا أن يبنوا حضارة  
ذات بهاء ، وأن يؤثروا تأثيرا كبيرا في الشعوب التي عاشت حولهم .

ويمكن وصف حضارة الأزتك بأنها حضارة مفارقات ، من حيث إنها كانت ،  
من ناحية ، متخلفة في شؤون المعتقد وما ترك ذلك المعتقد في تصرفاتهم من قسوة  
وبدائية ، وإنها كانت ، من ناحية أخرى ، متطورة في شؤون البناء والتربية ونظام  
الحكم .

ويلفت النظر أوجه الشبه بين تلك الحضارة وحضارات العالم القديم ، رغم بعد  
الشقة وانقطاع الصلة الواضحة . فالآزتك بنوا أهرامات مدرجة ، وشيدوا القصور ،  
وحفروا أقبية الرّي . كذلك آمنوا بالحياة بعد الموت وقدموا القرابين ، وخافوا الظواهر  
الطبيعية وعظموها ، ورصدوا حركة الشمس والكواكب ورسموا لها الخرائط الفلكية .

وتتميز حضارة الأزتك ، في جملة ما تتميز به ، بأساليب التربية ونظام المحاكم ،  
وهما مظهران وجههما عندهم إحساس عميق وصارم بالعدالة والتزام راسخ بالمبادئ .

ولا تزال تلك الحضارة موضوعا جديدا بالنسبة إلى الفتى العربي ، فيه الكثير من  
المعلومات الغريبة المشوقة التي تزيد من معرفته بالأمر القديم وأساليب حياتها ، وتجعله  
يتفهم حتى خرافاتها وتصرفات شعوبها البدائية .

© حقوق الطبع محفوظة

طبع في انكلترا

١٩٨٠





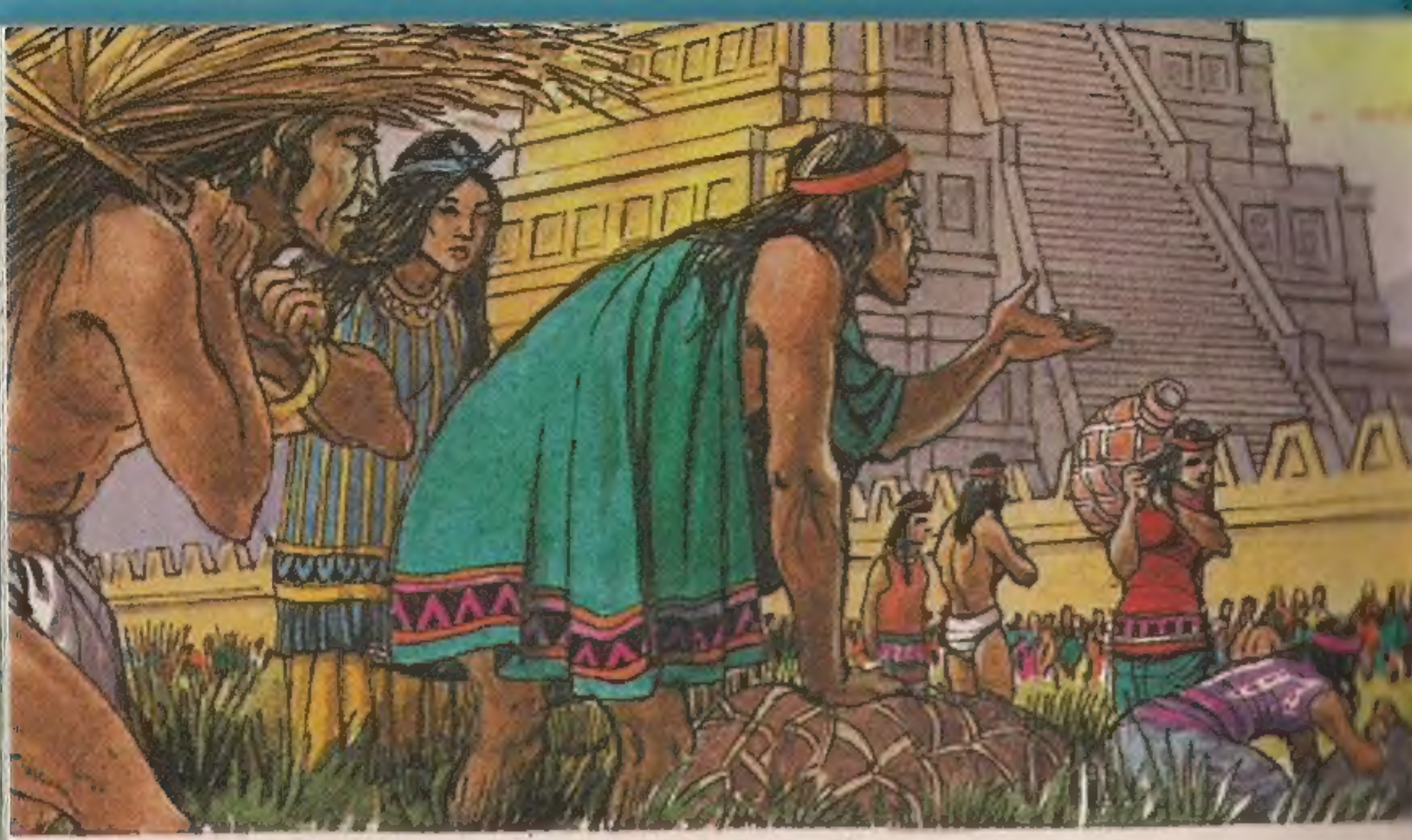
وَأُطْلِقَ الْجُمْهُورُ ، حِينَ تَمَّتِ التَّضَحِّيَةُ ، تَنْهَدَةً أَرْتِياحٍ عَمِيقَةً . فَقَدْ  
حَظِيَ إِلَهُ الشَّمْسِ الْعَظِيمُ ، وَأَسْمُهُ فِي مُعْتَقِدِهِمْ وَيَتَزِيلُوهُنَّ شَتْلِي ، بِقَلْبٍ ذَبِيحَةٍ  
أُخْرَى وَدَمِهَا . بَلْ كَانَ سَيُقَدَّمُ إِلَى هَذَا الْإِلَهِ ، قَبْلَ غِيَابِ الشَّمْسِ ، مَخْزُونٌ  
وَافِرٌ مِنَ الْقَرَابِينَ الْبَشَرِيَّةِ الثَّمِينَةِ . فَقَدْ أَصْطَفَى عِنْدَ قَاعِدَةِ الْهَرَمِ عَدَدٌ مِمَّنْ  
سَيُقَدَّمُونَ قَرَابِينَ . وَكَانَ هَؤُلَاءِ ، طَوَالَ فِتْرَةٍ بَعْدَ الظُّهْرِ ، يَتَسَلَّقُونَ دَرَجَاتِ  
الْهَرَمِ ، الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخَرِ . وَقَبِيلَ حُلُولِ الظَّلَامِ كَانَ قَدْ ضَحَّى بِهِمْ جَمِيعًا .  
وَكَانَ الْمُتَفَرِّجُونَ قَدْ بَدَأُوا بِالتَّفَرُّقِ ، لِأَنَّ اللَّيْلَ وَشَيْكَ الْهَبُوطِ . وَالْآزَتِكَ  
يَرْهَبُونَ اللَّيْلَ ، رُغْمَ أَنَّ الْمَجَامِيرَ الْمُتَقَدَّةَ تُضِيءُ شَوَارِعَ عَاصِمَتِهِمْ تِنُوتْشِتِلَانَ  
إِضَاءَةً جَيِّدَةً .

مَا إِنَّ رَفَعَ كَاهِنٌ مِنَ الْآزَتِكَ سِكِّينَهُ الْقُرْبَانِيَّ حَتَّى لَمَعَ النَّصْلُ الصَّوَانِيُّ  
فِي بَرِيقِ الشَّمْسِ . وَبَدَأَ تَحْتَ النَّصْلِ الْمَرْفُوعِ رَجُلٌ مُمَدِّدٌ عَلَى ظَهْرِهِ فَوْقَ  
مَذْبَحٍ حَجَرِيٍّ ، وَقَدْ أَمْسَكَ بِذِرَاعَيْهِ وَرِجْلَيْهِ أَرْبَعَةُ كَهَنَةٍ آخَرُونَ . الْمَوْتُ  
صَارَ وَشَيْكًا . أَهْوَى الْكَاهِنُ بِسِكِّينِهِ فَاخْتَرَقَ النَّصْلُ صَدْرَ الضَّحِيَّةِ . وَمَا هِيَ  
إِلَّا ثَوَانٍ حَتَّى كَانَ الْقَلْبُ قَدْ انْتَرَعَ ، فَرَفَعَهُ الْكَاهِنُ عَالِيًا نَحْوَ الشَّمْسِ مُطْلَقًا  
صَبِيحَةً أَنْتِصَارَ .

كَانَ الْكَهَنَةُ الْخَمْسَةُ ، هُمْ وَضَحِيَّتُهُمْ ، وَحَدَهُمْ فَوْقَ قِمَّةِ هَرَمٍ مُدَرَّجٍ  
يَعْلُو سَبْعَةً وَعِشْرِينَ مِثْرًا وَنِصْفَ الْمِثْرِ . غَيْرَ أَنَّ جُمْهُورًا غَفِيرًا عِنْدَ أَسْفَلِ الْهَرَمِ  
كَانَ يَتَفَرَّجُ عَلَى مَشْهَدِ التَّضَحِّيَةِ ، فَيَمُوجُ فِي مَيْدَانِ الْهَيْكَلِ فِي تِنُوتْشِتِلَانَ ،  
عَاصِمَةِ بِلَادِ الْآزَتِكَ ، وَهِيَ الْعَاصِمَةُ الْوَاقِعَةُ عَلَى ضِفَافِ بُحِيرَةِ تَشْكُوكُو ،  
فِي أَوَاسِطِ بِلَادِ الْمَكْسِيكِ .

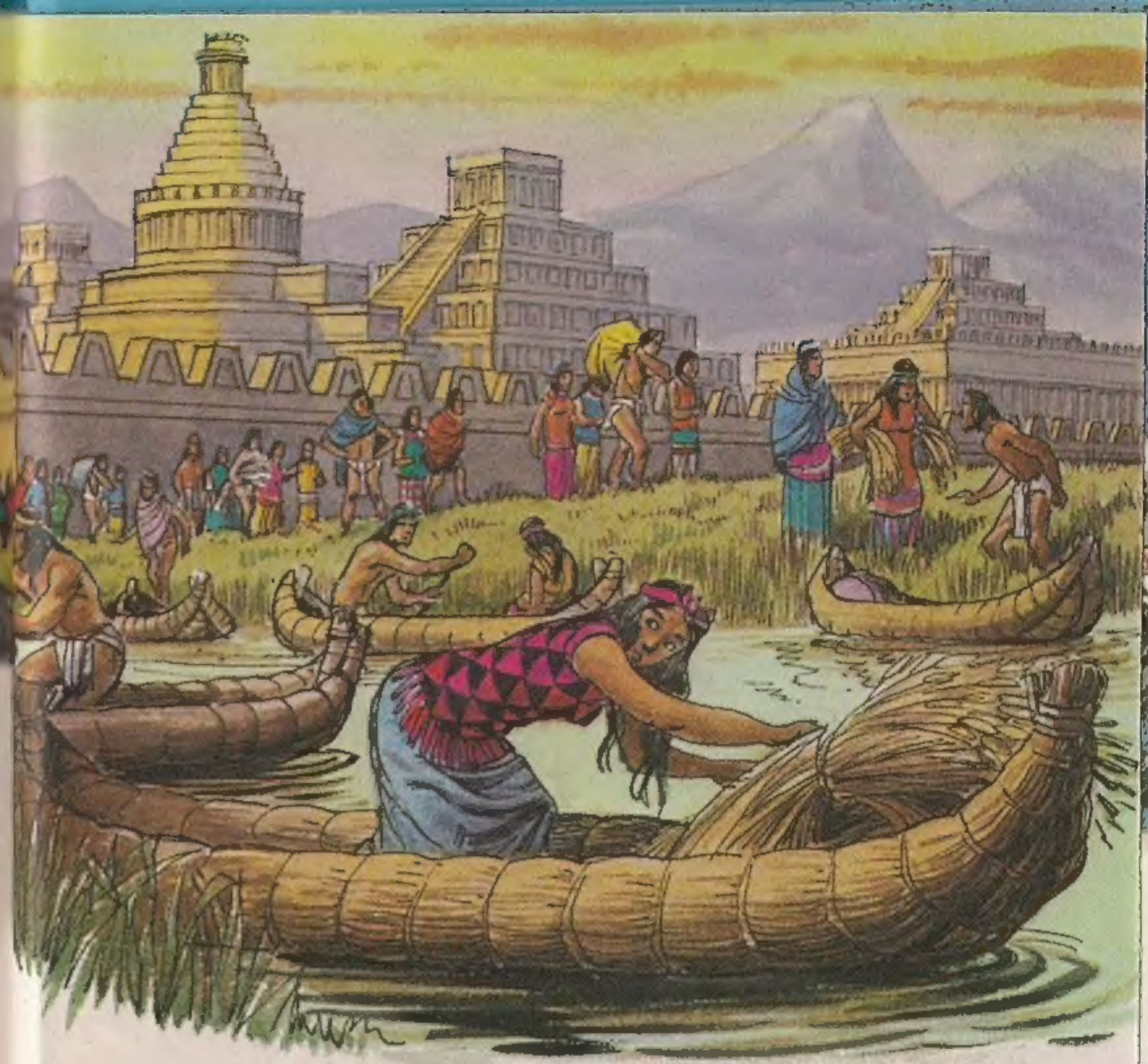






كانوا جميعاً راضين . فقد أبعد ما شاهدوه في الهيكل أسوأ ما يساورهم من مخاوف . فإله الشمس ، في اعتقادهم ، كان يموت كل يوم عند الغياب . وطالما زود بالقرايين البشرية فسوف ينبعث حياً في فجر اليوم التالي . ولقد كانت قرايين بعد ظهر ذلك اليوم وافرة ، فلا شك أن الشمس ستشرق ، إذا ، فوق القصور الحجرية البيضاء في تنوتشتلان وفوق أهياكل ، وأن المحصولات الزراعية وأشجار الفاكهة والخضر ستظل على عطاياها ، وأن الحياة ستستمر كما كانت . وإِنَّه ، تأمينا لأنبعاث إله الشمس عند كل شروق ، ولأستمرار عالم الآزتك على نحو ما هو قائم ، كانوا سيضحون في اليوم التالي بعدد آخر من القرايين البشرية .

فما حقيقة ذلك العالم الذي كان الآزتك يكافحون للمد في أجله بذلك الأسلوب الوحشي ، أسلوب تقديم القرايين البشرية إلى إلههم ؟ إن أكثر ما يثير الدهشة حول ذلك العالم هو أنه عالم المفارقات . فقد كان الآزتك ، في نواح ، يسبقون عصرهم سبقاً مذهشاً ، وكانوا ، في نواح أخرى ، متخلفين خلفاً فظيعاً .



كان الآزتك يؤمنون بانتشار الأشباح والعفاريت في كل مكان . يُضاف إلى ذلك أن عاصمتهم ، تنوتشتلان ، تعلو ٢٢٥٥ متراً فوق سطح البحر ، وأن الطقس ، لذلك ، يغدو شديد البرودة بعيد الغياب . أما لباسهم فكان خفيفاً ، يكتفي الرجال منهم ، عادة ، بسرة حول وسطهم ، ويسرون حفاة . أما من كانوا يرتدون عباءة فكانت تراهم يتحركون داخلها وهم منطلقون عبر الممرات الموحلة التي تقودهم إلى أفنية المياه ، حيث يكونون قد ربطوا زوارقهم . وترى الآزتك هناك يقفزون إلى تلك الزوارق وينطلقون إلى بيوتهم .



عِنْدَمَا دَخَلَ الْفَاتِحُ الْإِسْبَانِيُّ هِرْنَانَ كُورْتِيزَ قَلْبِ بِلَادِ الْمَكْسِيكِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الْعَامِ ١٥١٩ ، صُعِقَ هُوَ وَجُنُودُهُ لِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ رَوَائِعِ تِنُوتَشْتِلَانَ وَاتَّسَاعِهَا . فَقَدْ كَانَتْ بِأَلْفِ ثَلَاثِمِئَةٍ وَخَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ سُكَّانِهَا وَبِأَلْفَتَيْنِ أَلْفًا مِنْ بُيُوتِهَا أَكْبَرُ بَكْثِيرٍ مِنْ أَيَّةِ مَدِينَةٍ أوروبيةٍ تُعَاصِرُهَا . وَكَانَ يَرْبُطُ الْعَاصِمَةَ بِشَوَاطِئِ بُحَيْرَةِ تَشُكُوكُو ثَلَاثَةُ طُرُقٍ رَئِيسِيَّةٍ ، يَتَرَاوَحُ طُولُ الْوَاحِدِ مِنْهَا بَيْنَ ثَلَاثَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ وَخَمْسِيَّةٍ ، وَيَتَسَعُّ الْعَرْضُ لِعَشْرَةِ خِيَالَةٍ مُتَجَاوِرِينَ . وَأَمَّا الْمَاءُ الْعَذْبُ فَكَانَ يُجْرُ إِلَى قَلْبِ الْمَدِينَةِ عَبْرَ خَطِّ أَنْابِيبَ مُزْدَوِجٍ ، فِي حِينٍ يَحْمِي الْمَدِينَةَ مِنْ مِيَاهِ الْفَيْضَانِ خَنْدَقُ طَوْلُهُ سِتَّةَ عَشَرَ كِيلُومِتْرًا .

وَكَانَ مَلِكُ الْأَزْتِكِ مُكْتَبِرُ مَا شُكُوِيْتَسِينَ يَعِيشُ فِي قَصْرِ ضَخْمٍ ، يَضُمُّ مِئَةَ غُرْفَةٍ وَمِئَةَ حَمَّامٍ بُخَّارٍ ، وَعِشْرِينَ مَدْخَلًا ، وَقَاعَةً رَئِيسِيَّةً وَاحِدَةً تَتَسَعُّ لثَلَاثَةِ آلَافٍ مَدْعُورٍ .

الْعَاصِمَةُ تِنُوتَشْتِلَانَ  
كَمَا تَحْيَلُهَا الرَّسَامُ

وَرَاحَ أَحَدُ الْإِسْبَانِيِّينَ يَتَجَوَّلُ فِي الْقَصْرِ مُسْتَكْشِفًا إِيَّاهُ ، لَكِنْ أَصَابَهُ الْإِرْهَاقُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْ مُشَاهَدَتِهِ كُلِّهِ . إِلَّا أَنَّ مَا رَأَاهُ مِنْهُ كَانَ مُدْهِشًا . فَقَدْ غَطَّى الرُّخَامُ وَالْيَشْبُ وَمَوَادُّ أُخْرَى نَادِرَةً جُدْرَانَ الْغُرَفِ . أَمَّا السُّقُوفُ فَكَانَتْ مَبْنِيَّةً مِنْ خَشَبِ الصَّنُوبَرِ وَالْأَرْزِ الْمَحْفُورِ حَفْرًا دَقِيقًا . وَأَحَاطَتْ بِالْقَصْرِ بَسَاتِينُ مَرْوِيَّةٌ مَلِيئَةٌ بِالْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ الْاسْتَوَائِيَّةِ ، وَأَقْفَاصُ طُيُورٍ كَبِيرَةٍ وَحْدَائِقُ تَخْتَوِي عَلَى غَرَائِبِ الطَّيْرِ وَالْحَيَّوَانِ .

عَلَى أَنَّ الشَّعْبَ الَّذِي بَنَى مِثْلَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ كَانَ لَا يَزَالُ ، فِي عَدَدٍ مِنْ وُجُوهِ حَيَاتِهِ ، بَدَائِيًّا . فَالْأَزْتِكُ ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، لَمْ يَسْتَعْمِلُوا الدُّوْلَابَ فِي مُوَاصَلَاتِهِمْ وَلَا الْحَيَّوَانَ فِي شَدِّ مِحْرَافِهِمْ . وَحَيَّوَانُ النَّقْلِ الْوَحِيدُ عِنْدَهُمْ كَانَ الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ . فَقَدْ كَانَ الْحَمَّالُونَ يَرْتَحِلُونَ صُفُوفًا طَوِيلَةً عَبْرَ الْمَمَرَّاتِ الْجَبَلِيَّةِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى تِنُوتَشْتِلَانَ ، يَحْمِلُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ شِحْنَ الْقُطْنِ وَالْيَشْبِ وَالرِّيشِ وَالذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْجُلُودِ وَمُتَّجَاتِ الزَّرَاعَةِ وَبَضَائِعَ أُخْرَى ، يَنْقُلُونَهَا إِلَى الْعَاصِمَةِ مِنْ أَقَاصِي إِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْأَزْتِكِ الْمُتْرَامِيَّةِ الْأَطْرَافِ .



وكانت المقايضة أساس تبادل السلع في تنوتشتلان . والمقايضة ، عادة ، وسيلة الشعوب البدائية في التجارة .

ولم تكن مفارقات عالم الآزتك الغربية مقتصرة على ما ذكر . فعرفة الآزتك في علم الفلك ، على سبيل المثال ، كانت تفوق معرفة الأوروبيين بمراحل . كان فلكيوهم ، وجميعهم من الكهنة ، يرصدون حركة الشمس والقمر والكواكب ويرسمون خرائط فلكية لها ، ويدونون ملاحظاتهم بوساطة رموز هندسية وغيرها من الرموز الرياضية . ولم تصل معرفة الأوروبيين الفلكية إلى هذا المستوى إلا في أوائل القرن السابع عشر ، بعد أن نقلت معارف العرب الفلكية إلى اللغات الأوروبية المختلفة .

إلا أن الآزتك الذين تفوقوا على الأوروبيين في هذا العلم المعقد ، كانوا يعيشون ، إلى حد ما ، في العصر الحجري ، العصر الذي عاش فيه الأوروبيون في العام ٢٠٠٠ ق.م .

فقد استعمل في أروبة العصر الحجري الصوان والحجارة والخشب ومواد أخرى غير معدنية في صناعة الأوعية المنزلية والأدوات المختلفة . وكان الآزتك لا يزالون ، بعد ذلك بأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، يستعملون المواد نفسها في صناعتهم ، في حين كان الأوروبيون قد شرعوا في استخدام المعادن منذ عهد بعيد . عرف الآزتك المعادن ولكنهم كانوا يستخدمونها في وسائل التزيين ، فيصوغون من الذهب والفضة والنحاس والبرونز حلياً ، أو يزيّنون بها الأبنية ، أو يصنعون منها لآلهتهم تماثيل وأصناماً .

إشعال النار في صدر ذبيحة بشرية ،  
ورصد كواكب وأفلاك





وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، كَانَ آلَازَّتِكَ يُؤْمِنُونَ أَنَّ مَوَاقِعَهُمْ بَيْنَ الشُّعُوبِ فَرِيدٌ ،  
وَأَنَّ وَيتَزِيلُو بِيْتَشْتَلِي قَدْ اخْتَارَهُمْ أَسْيَادًا لِلْعَالَمِ ، وَأَنَّ الشُّعُوبَ الْأُخْرَى لَمْ تَوْجَدْ  
إِلَّا لَتَكُونَ خَدَمًا لَهُمْ ، وَلِتَزَوِّدَهُمْ بِالطَّعَامِ وَالْبَضَائِعِ وَبِضَحَايَا لَطْفُوْسِهِمْ  
الْدِّينِيَّةِ .

إِلَهَ الْحَرْبِ



كَاهِنٌ يَتَنَبَّأُ بِجِنْسِ الطِّفْلِ الْمُنْتَظَرِ

وَلَعَلَّ أَشَدَّ الْمَفَارِقَاتِ غَرَابَةً تَتَمَثَّلُ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي نَظَرَ فِيهَا آلَازَّتِكَ إِلَى  
أَنْفُسِهِمْ وَإِلَى قَدَرِهِمْ .

فَمِنْ نَاحِيَةٍ ، كَانَ الْخَوْفُ مِنْ ضَعْفِهِمِ الْإِنْسَانِيَّ يَسْتَحُوذُ عَلَى تَفْكِيرِهِمْ .  
فَقَدْ أَحْسَوْا بَعْجَزِهِمْ أَمَامَ قُوَى الطَّبِيعَةِ الْمُرَوَّعَةِ وَأَمَامَ الْآلِهَةِ الَّتِي عَبْدُوهَا . وَغَضَبُ  
وَيَتَزِيلُو بِيْتَشْتَلِي وَغَيْرِهِ مِنَ الْآلِهَةِ كَانَ يَعْنِي عِنْدَهُمْ نِهَايَةَ الْعَالَمِ . وَدَأَبُوا ، إِرْضَاءً  
لِهَذِهِ الْآلِهَةِ ، عَلَى تَقْدِيمِ الْقَرَابِينِ الْبَشَرِيَّةِ . وَكَانَ أَنَّ آمَنُوا بِالْحُرَافَاتِ ،  
وَرَفَضُوا أَنَّ يَبْنُوا بَيْتًا أَوْ يَشْتَرِكُوا فِي قِتَالٍ أَوْ يَتَزَوَّجُوا أَوْ يَفْعَلُوا أَيَّ شَيْءٍ مِنْهُمْ  
آخَرَ ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَشِيرَ الْكَاهِنُ النُّجُومَ وَيُعْلِنَ الْوَقْتَ الْمُنَاسِبَ .



وَلَمْ يَكُنْ يَضْعُبُ عَلَى آلَازِتِكَ ، فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ ، أَنْ يُصَدِّقُوا أَنَّ إِلَهُهُمْ وَيتزِيلوْپِتْشْتَلِي قَدْ بَرَّ بوعْدِهِ لَهُمْ ، فَقَدْ كَانُوا آنَذَاكَ يَحْكُمُونَ إمبراطوريةً تَعْدَادُ سُكَّانِهَا اثْنَا عَشَرَ مَلْيُونًا وَمِسَاحَتُهَا مِثَتَانِ وَخَمْسُونَ أَلْفَ كِيلُومِترٍ مُرَبَّعٍ .



العلامةُ الَّتِي أَرْسَلَهَا وَيتزِيلوْپِتْشْتَلِي

كَانُوا ، قَبْلَ ذَلِكَ الزَّمانِ بَقَرَتَيْنِ فَقَطْ ، لَا يَزَالُونَ بَدَّوْا رُحَلًا يَتَنَقَّلُونَ مِنْ

مَكَانٍ إِلَى آخَرَ بَحْثًا عَنْ مَأْوَى ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ كِسَاءٍ غَيْرُ جِلْدِ الْحَيَوَانِ ، وَلَا مَلْجَأٍ ، فِي الْعَادَةِ ، غَيْرُ كُهُوفِ الْجِبَالِ . يَعِيشُونَ عَلَى الصَّيْدِ ، أَوْ يَعْمَلُونَ جُنُودًا مُرْتَزِقَةً فِي إِمْرَةِ الْقَبَائِلِ الْأَفْضَلِ حَالًا مِنْهُمْ . يَنْجَحُونَ ، أحيانًا ، فِي أَنْ يَمْكُثُوا بِضْعَ سَنَوَاتٍ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، أَتْبَاعًا لِقَبَائِلٍ أُخْرَى ، وَلَكِنَّهُمْ يُكْرَهُونَ ، فِي آخِرِ الْأَمْرِ ، عَلَى الرَّحِيلِ .

وَإِذَا كَانَ آلَازِتِكَ قَدْ عَوَمِلُوا ، آنَذَاكَ ، مُعَامَلَةً الْمُنْبُودِينَ ، فَوَرَاءَ ذَلِكَ سَبَبٌ وَجِيهٌ . فَهُمْ شَعْبٌ شَدِيدُ الْقَسْوَةِ كَانَ قَدْ بَدَأَ ، مُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فِي مُمَارَسَةِ عَادَةِ التَّضَحِّيَةِ بِالْبَشَرِ .

وَقَدْ حَدَّثَ مَرَّةً أَنْ أُرْسِلَ الْمُرْتَزِقَةُ مِنْ آلَازِتِكَ إِلَى مَعْرَكَةٍ فَعَادُوا إِلَى سَيِّدِهِمْ بِكَيْسٍ فِيهِ آذَانُ ثَمَانِيَةِ أَلْفِ أُسِيرٍ . وَتِلْكَ وَسِيلَةُ مُرُوءَةٍ مُخِيفَةٍ لَتَبَيَّانِ عَدَدِ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي الْأُسْرِ مِنَ الْأَعْدَاءِ . فَلَا عَجَبَ ، إِذَا ، أَنْ تَفَرَّتِ الشُّعُوبُ الْأُخْرَى مِنْهُمْ .

وَصَلَ آلَازِتِكَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ إِلَى شَاطِئِ بُحَيْرَةِ تَشْكُوكُو ، وَهُوَ مَكَانٌ ، عَلَى عِلَاتِهِ ، رَأَوْا أَنْ يَسْتَقَرُّوا فِيهِ . مَا كَانَ حَوْلَهُمْ غَيْرُ الْمُسْتَنْقَعَاتِ وَجُزُرٍ غَيْرِ مَأْهُولَةٍ تَعِجُّ بِالْبَعُوضِ . عَلَى أَيِّ حَالٍ ، فَإِنَّ إِلَهُهُمْ وَيتزِيلوْپِتْشْتَلِي نَفْسُهُ ، وَفَقَّ مَا أَثَرَ عَنْهُمْ ، هُوَ الَّذِي قَضَى بَأَنَّ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَوْقِعُ الْمُنْفَرُّ دَارًا لَهُمْ . فَنِي أَحَدِ الْأَيَّامِ رَأَى كَاهِنٌ مِنْ آلَازِتِكَ نَسْرًا يَحُطُّ عَلَى شَجَرَةٍ صَبَّارٍ . وَادَّعَى ذَلِكَ الْكَاهِنُ أَنَّ مَا رَأَاهُ عَلَامَةٌ مِنْ وَيتزِيلوْپِتْشْتَلِي . فَبَنَى آلَازِتِكَ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِعِ هَيْكَلًا ، وَأَقَامُوا حَوْلَهُ لِأَنْفُسِهِمْ أَكْوَاخًا مِنْ قَصَبٍ . وَهُنَاكَ أَخَذُوا يَعِيشُونَ حَيَاةً تَاعِيسَةً قِوَامُهَا سَمَكُ الْمُسْتَنْقَعَاتِ وَطُيُورُ الْمَاءِ وَشَيْءٌ مِنَ التَّجَارَةِ مَعَ الْقَبَائِلِ الْمُجَاوِرَةِ .





وَسَمَلَتْ تِلْكَ الْبِلَادُ الْوَاسِعَةَ ثَمَانِي وَثَلَاثِينَ مُقَاطَعَةً تَسْكُنُهَا شُعُوبٌ وَقَبَائِلُ ،  
وَهَؤُلَاءِ أَعْتَبَرُوا أَتْبَاعًا لِأَسْيَادِهِمْ مِنَ الْآزْتِكِ ، لَا يَتَمَيَّزُونَ كَثِيرًا عَمَّا يُعْرِفُ  
بِعَبِيدِ الْأَرْضِ . وَكَانَ عَلَى الْأَتْبَاعِ أَنْ يُرْسِلُوا إِلَى أَسْيَادِهِمْ فِي تِنُوشْتِيلَانَ خَيْرَ  
مَحْصُولَاتِهِمُ الزَّرَاعِيَّةِ ، وَصَفْوَةِ مُنْتَجَاتِهِمُ الصَّنَاعِيَّةِ ، وَمُقْتَنِيَاتِهِمُ الثَّمِينَةِ ،  
وَسِوَى ذَلِكَ مِنْ أَشْكَالِ الْجَزْيَةِ .



الْآزْتِكُ يُحْصَلُونَ الْجَزْيَةَ  
مِنَ الشُّعُوبِ التَّابِعَةِ لَهُمْ

وَكَانَتْ الْحَيَاةُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ الْقَاسِيَةِ صِرَاعًا شَاقًّا . إِلَّا أَنَّ مَجْمُوعَةَ  
الْأَكْوَاحِ الْقَائِمَةِ عَلَى بُحَيْرَةِ تَشُكُوكُو أَخَذَتْ تَتَحَوَّلُ ، بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ ،  
إِلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي عُرِفَتْ بِأَسْمِ تِنُوشْتِيلَانَ ، أَيْ «مَوْقِعِ الصَّبَارِ» فِي لُغَةِ الْآزْتِكِ .  
وَسُرْعَانِ مَا أَخَذَ الْآزْتِكُ يَغْزُونَ الْقَبَائِلَ مِنْ حَوْلِهِمْ ، وَكَانُوا فِي هَذَا مُجَلِّينَ .  
وَمَا إِنَّ حُلَّ الْعَامِ ١٤٤٠ حَتَّى كَانُوا قَدْ اكْتَسَحُوا وَادِي الْمَكْسِيكِ بِأَسْرِهِ .

وَتَمَكَّنَ الْآزْتِكُ ، بَعْدَ ثَمَانِينَ عَامًا مِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ ، مِنْ إخْضَاعِ عَدَدٍ  
آخَرَ مِنَ الْقَبَائِلِ ، بِحَيْثُ بَنَوْا إِمْبَرَاطُورِيَّةً أَمْتَدَّتْ مِنْ خَلِيجِ الْمَكْسِيكِ إِلَى  
شَوَاطِئِ الْمُحِيطِ الْهَادِي (انْظُرِ الْخَرِيطَةَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ) .



وكانت الشعوب والقبايل المغلوبة على أمرها تمقت الآزتك ممقتا شديدا ، ولكن تقف عاجزة أمام قوة أسيادها وقدراتهم . فلم يكن لها ، إذا ، إلا أن تدفع الجزية ، وأن تصلي حتى يكون لها ، يوما من الأيام ، وبصورة من الصور ، انتقام من مستعبيها .

ولم يكن ما تدفعه الشعوب التابعة من محصولاتها الزراعية ومنتجاتها ومقتنياتها الثمينة إلا جانباً من الجزية . فقد كان عليها ، كذلك ، أن تزود أسيادها بأعداد من البشر يقدمون قرايين في أهياكل ، أو يتخذون عبيدا . كان على الأتباع ، نساء ورجالا ، أن يتركوا منازلهم ، دون رجعة ، حين يطلب أسيادهم الآزتك منهم ذلك ، وأن يمضوا في تلك الرحلة الكثيرة إلى تنوتشتلان . ولا أحد يعلم عدد أولئك الذين كانوا يفدون مكرهين ، ولكن لا شك أنه كان عددا هائلا . فقد كان كهنة الآزتك يضحون ، سنويا ، بما يتراوح بين عشرة آلاف ضحية بشرية وخمسين ألفا ، وقد يضحى بمناسبة خاصة واحدة بالآلاف . في العام ١٤٧٣ دشن الآزتك الهيكل المزدوج للإلهين من آلهتهم هما ويتزيلوئيتشي وكيترلكواتل (أي واهب الحضارة ، في لغتهم) ، وقام الكهنة أربعة أيام بلياليها يقدمون الذبائح البشرية حتى بلغ مجموع الضحايا عشرين ألفا . وقف الضحايا في أربعة صفوف امتد الواحد منها عبر شوارع تنوتشتلان أكثر من ثلاثة كيلومترات . إنه لمصير مروّع ، زاد في بشاعته منظر الكهنة أنفسهم . فقد طلوا أجسادهم كلها بالسواد ولبسوا عباءات زينوها بالجماجم والعظام . أما شعرهم الأسود الطويل فما كانوا يغسلونه قط ولا يمشطونه ، بل يتركونه كما هو ملطخا بدماء ضحاياهم .

وكثيرا ما نجد بين آلاف الضحايا أولئك العبيد الذين يسيئون التصرف . وأما الكسالى من العبيد أو العصاة أو السارقون فيرسلون إلى السوق المحلية

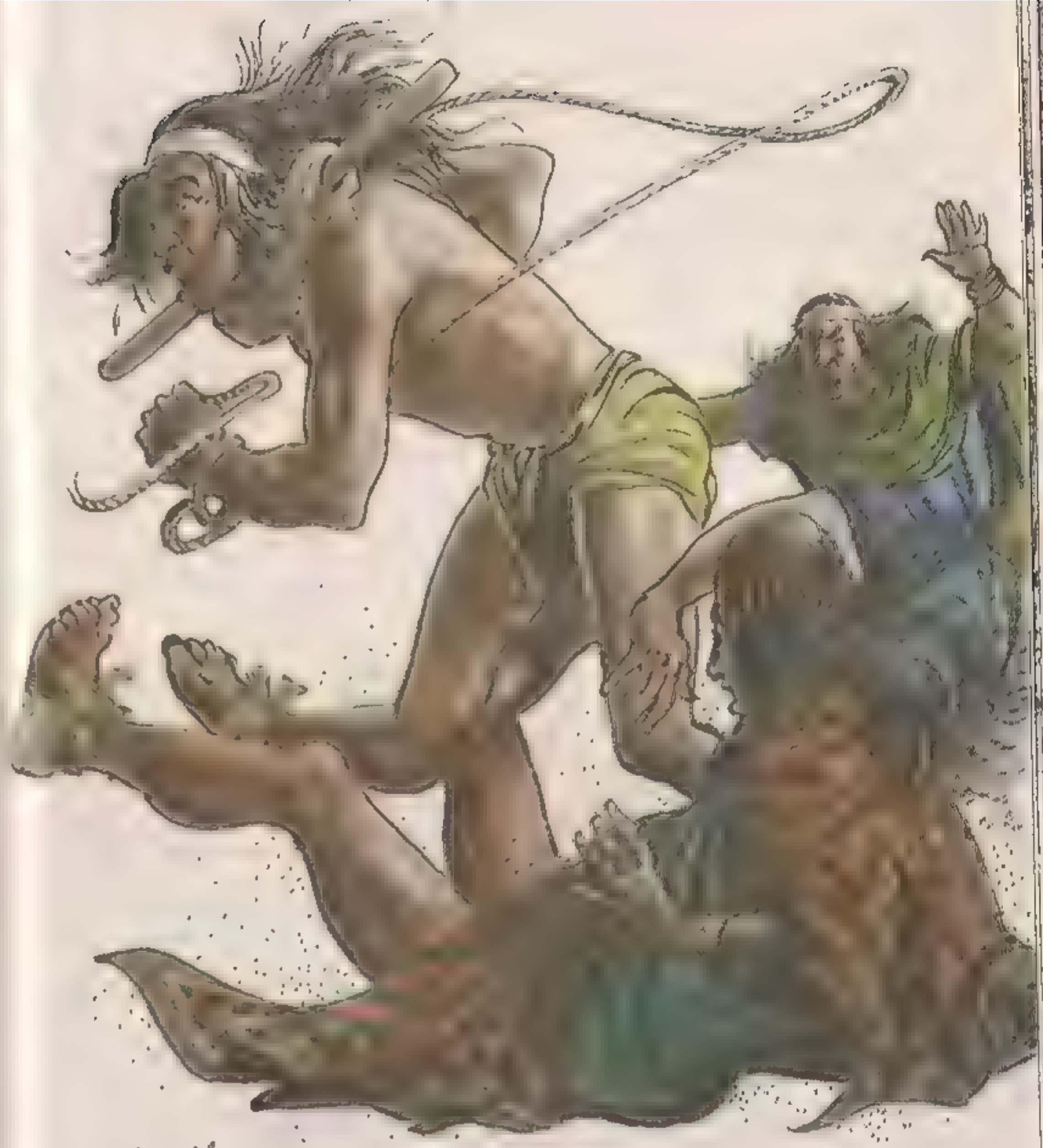
ليعاد بيعهم . فيقف الواحد منهم هناك ، والنير في عنقه ، بينما يقف الراغبون في الشراء يتفحصونه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . وللعبد أن يباع ثلاث مرات لثلاثة مالكين ، فإذا لم يكن أحد من مالكيه راضيا عنه فلا يبقى أمامه إلا أن يباع إلى الكهنة ليضحى به .

على أن الأساليب الممجيّة لم تمنع الآزتك من أن يعاملوا عبيدهم المضطّطين معاملة حسنة . فلم يكن يُسمح للمالك بأن يبيع عبدا مجددا حسن السلوك دون رغبته . ويسرد العبد حرّيته إذا دفع للمالك ما كان المالك قد دفعه أصلا ثمنا لشرائه .

الدرج المؤدي إلى هيكل كيترلكواتل







عَبْدٌ يُحَاوِلُ الْفِرَارَ

وَلَاَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لَا تُورَثُ تِلْقَائِيًّا فَقَدْ تَمَكَّنَ إِتْرُكُوَاتِلُ ، وَهُوَ ابْنُ أُمَّةٍ ، مِنْ الْوُصُولِ إِلَى الْعَرْشِ . وَكَانَ إِتْرُكُوَاتِلُ ، بَعْدَ انْتِخَابِهِ مَلِكًا فِي الْعَامِ ١٤٢٧ ، الرَّأْسَ الْمُدَبَّرَ وَرَاءَ انْتِشَارِ قُوَّةِ الْآزَتِكِ فِي وَادِي الْمَكْسِيكِ كُلِّهِ ، كَمَا كَانَ وَاحِدًا مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِهِمْ .

لَمْ تَكُنْ أُمُّ هَذَا الْمَلِكِ لِتَسْتَطِيعَ التَّنَبُّؤَ بِقَدَرِ أَيُّهَا يَوْمَ أَلِيسَتْ ثَوْبًا مُسْتَعَارًا  
الْبَدُوَ جَذَابَةً فِي سَوْقِ النَّخَاسَةِ ، وَيَوْمَ تُرِكَتْ ، بَعْدَ بَيْعِهَا ، فِي قَفَصٍ خَشِيِّ ،  
انْتِظَارًا لِعَوْدَةِ الْمَالِكِ .

وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّ عَمِلَتْ فِي بَيْتِ الْمَالِكِ ، فِي الْمَطَابِخِ ، أَوْ فِي  
غَزْلِ الْخُبُوطِ ، وَحِيَاكَةِ الْقُمَاشِ ، وَخِيَاطَةِ الْعَبَاءَاتِ وَأَنْوَاعِ الثِّيَابِ الْأُخْرَى .  
أَمَّا الذُّكُورُ مِنَ الْعَبِيدِ فَكَانُوا يَعْمَلُونَ خَدَمًا فِي الْبُيُوتِ أَوْ حَمَالِينَ ، أَوْ يَكْدَحُونَ  
فِي الْحُقُولِ فِي إِنتَاجِ الذُّرَّةِ وَالْفِلْفِلِ وَالْبِنَادُورِيِّ (الطَّمَاظِمِ) وَالْقَرْعِ وَسِوَى  
ذَلِكَ مِنَ الْمَحْصُولَاتِ .

وَكَانَ الْعَبِيدُ يَشْغَلُونَ أَذْنَى مَرْتَبَةٍ فِي مُجْتَمَعِ الْآزَتِكِ . وَيَأْتِي فَوْقَهُمُ الْمَالِكُ ،  
وَلَا يَفْضُلُونَ الْعَبِيدَ إِلَّا قَلِيلًا . وَالْمَالِكُ هُوَ لَا ، نَظَرِيًّا ، أَحْرَارٌ ، نِسَاءٌ وَرِجَالًا ،  
وَلَكِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ ، تَأْمِينًا لِمَعِيشَتِهِمْ . أَنْ يُسَلِّمُوا أَنْفُسَهُمْ لِمَا يُشَبِّهُ الْعُبُودِيَّةَ .  
فَقَدْ كَانُوا يَسْتَأْجِرُونَ الْأَرْضَ مِنْ نُبْلَاءِ الْآزَتِكِ وَكَهَنَتِهِمْ ثُمَّ يُقَدِّمُونَ لِقَاءَ ذَلِكَ  
الْجُزْءِ الْأَكْبَرَ مِنَ الْمَحْصُولِ الَّذِي يُنتِجُونَهُ . كَانَتْ حَيَاةُ الْفَرْدِ مِنَ الْمَالِكِ تَاعِيسَةً ،  
فَمَا يَبْقَى لَهُ بَعْدَ دَفْعِ حِصَّةِ الْمَالِكِ لَا يَكَادُ يَقُومُ بِأَوْدِهِ .

وَكَانَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمَالِكِ أَفْرَادًا أَحْرَارًا كَثِيرِهِمْ مِنْ عَامَّةِ أَبْنَاءِ الْعَشَائِرِ  
الْعِشْرِينَ الَّتِي تَتَشَكَّلُ مِنْهَا أُمَّةُ الْآزَتِكِ . وَيَتَحَوَّلُ الْحُرُّ إِلَى مَالِكٍ إِذَا عَجَزَ عَنْ  
وَفَاءِ دَيْنٍ أَوْ ارْتَكَبَ جُرْمًا ؛ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَارٌ شَنِيعٌ ، لِأَنَّ فِيهِ حِرْمَانًا لِلْفَرْدِ  
وَلَأُسْرَتِهِ مِنَ الْإِتِّهَامِ إِلَى الْعَشِيرَةِ . وَهَذَا يَعْنِي حِرْمَانَهُمْ مِنْ زِرَاعَةِ حِصَّتِهِمْ  
مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي تَمْلِكُهَا الْعَشِيرَةُ .



إِلَّا أَنْ شَظَفَ الْعَيْشِ وَالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الْمُضْنِيَّةَ لَمْ تَكُنْ تُصِيبُ الْمَالِكِ  
وَحَدَّهُمْ بَلْ وَتُصِيبُ سِوَاهُمْ مِنَ الْمُزَارِعِينَ أَيْضًا . فَلَمْ يَكُنِ الْآزَتِكُ يَعْتَمِدُونَ عَلَى  
الْحَيَوَانَاتِ فِي جَرِّ مَحَارِيثِهِمْ وَشَقِّ الْأَتْلَامِ فِي الْأَرْضِ ، بَلْ اسْتَخْدَمُوا  
أَيْدِيَهُمْ ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ جَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ . كَذَلِكَ اسْتَخْدَمُوا أَدَاةَ كَالْعَصَا  
يَنْقُبُونَ بِهَا الْأَرْضَ ، وَيَنْقُرُونَ نُقْرَةً يُسْقِطُونَ فِيهَا بُدُورًا وَيُغْطَوْنَهَا بِالْتُّرَابِ وَأَخِيرًا  
يُسَوِّوْنَهَا بِأَقْدَامِهِمْ .

الذُّرَّةُ



إِعْدَادُ كَعَكَةِ ذُرَّةٍ

وَمَحْصُولُ الْآزَتِكِ الرَّئِيسِيِّ كَانَ الذُّرَّةَ . وَمِنَ الذُّرَّةِ صَنَعُوا الْوَانَا مِنْ  
الْمَاكِلِ . مِنْهَا كَعَكَةُ الذُّرَّةِ ، وَعَصِيدَةُ الذُّرَّةِ يُضِيفُونَ إِلَيْهَا الْفِلْفِلَ الْحُلُوَّ  
وَيَحْلَوْنَهَا بِالْعَسَلِ ، وَفَطِيرَةُ الذُّرَّةِ يَحْشَوْنَهَا بِالْفُطُرِ وَالْفَاصُولِيَّةِ وَثَمَارِ الْفَاكِهَةِ  
وَالضَّفَادِعِ وَالْحَلَزُونِ وَالسَّحَالِي وَيُتَبَّلُونَهَا بِالْفِلْفِلِ الْحُلُوِّ .

أَمَّا حَاجَتُهُمْ مِنَ اللَّحُومِ ، فَقَدْ أَمَّنَهَا الْمُزَارِعُونَ مِنْهُمْ بِتَرْبِيَةِ الدُّبُوكِ  
الرُّومِيَّةِ ، وَأَمَّنَهَا سُكَّانُ الرِّيفِ بِصَيْدِ الْغِزْلَانِ وَالْأَرَانِبِ .







وَالْمَحْظُوظُونَ مِنَ الْمَزَارِعِينَ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَزْرَعُونَ «الْبَسَاتِينَ الْعَائِمَةَ» ، الْمُنْبَتَّةُ تَثْبِيثًا دَائِمًا فِي مِيَاهِ بُحَيْرَةِ تَشْكُوكُو . وَكَانَ مِثْلُ هَذِهِ الْبَسَاتِينَ يُقَامُ بِأَعْدَادِ كُتْلَةٍ مُتَشَابِكَةٍ مِنَ النَّبَاتَاتِ الْمَائِيَّةِ ثُمَّ فَرَشَهَا بِطِينٍ مُنْتَزَعٍ مِنْ قَاعِ الْبُحَيْرَةِ . وَهَذَا الطِّينُ شَدِيدُ الْخُصُوبَةِ ، يُمَكِّنُ زَرْعَهُ بِالذَّرَّةِ وَالْأَزْهَارِ وَالْفَلْفَلِ وَالْبَنَادُورِ (الطَّمَاطِمِ) وَالْقَرَعِ وَبَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَزْرُوعَاتِ .

وَرُبَّمَا وَصَلَ طُولُ الْبُسْتَانِ الْعَائِمِ الْوَاسِعِ إِلَى اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ مِثْرًا وَعَرَضُهُ إِلَى عَشْرَةِ أَمْتَارٍ ، مِمَّا حَمَلَ الْمَوَاطِنِينَ مِنَ الْأَزْتِكِ عَلَى بِنَاءِ بُيُوتِهِمِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ

بُسْتَانٍ عَائِمٍ كَمَا يَبْدُو الْآنَ  
«نَسَبَ فَوْقَ مِثْلِ هَذِهِ الْبَسَاتِينَ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَسَاكِينُ الْعَائِمَةُ مَأْمُونَةً لِأَنَّهَا  
شَدَّتْ إِلَى أَرْضِ الْبُحَيْرَةِ بِوَسَاطَةِ جُذُورِ أَشْجَارِ الصَّفْصَافِ ؛ وَهِيَ أَشْجَارٌ كَانُوا  
يَزْرَعُونَهَا لَهُذِهِ الْغَايَةِ .

وَأَمَّا فِي الرَّيْفِ فَكَانَ مَزَارِعُو الْأَزْتِكِ يَعِيشُونَ فِي أَكْوَاحٍ مِنْ غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ  
مَنْصُوعَةٍ مِنْ طِينٍ أَوْ حَجَرٍ وَمَسْقُوفَةٍ بِالْقَشِّ . وَفِي كُلِّ كُوخٍ هَيْكَلٌ صَغِيرٌ يَضُمُّ  
شِئْنَ آلِهَتِهِمْ وَتَمَاثِيلَهَا الْمَصْنُوعَةَ مِنَ الْخَشَبِ أَوْ الطِّينِ أَوْ الْحَجَرِ . وَفِيهِ كَذَلِكَ  
يُوقِدُ يَتَّخِذُونَ نَارَهُ مِنْ أَوْراقِ الشَّجَرِ وَكِسْرِ الْخَشَبِ وَالصَّبَّارِ الْمُجَفَّفِ .



كَانَ الْعَامَّةُ الْأَحْرَارُ مِنْ عَشَائِرِ الْأَزْتِكِ يُشْكِلُونَ أَرْبَعَةَ أَعْشَارِ الشَّعْبِ .  
وَكَانَتْ الضَّرَائِبُ الَّتِي يَدْفَعُونَهَا مَوْرِدًا مِنْ مَوَارِدِ الْحُكُومَةِ ، وَالْجَيْشِ ، وَرِجَالِ  
الدِّينِ ، وَالْمَلِكِ وَبَلَاطِهِ . كَمَا كَانُوا يَدْفَعُونَ الْمَالَ لِرُؤَسَاءِ الْعَشَائِرِ ، وَلِمَدَارِسِهِمْ  
الْمَحَلِّيَّةِ ، وَلِلْمَشْرُوعَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَرْعَى ذَوِي الْحَاجَاتِ مِنَ الْيَتَامَى  
وَالْأَرَامِلِ وَالْمُسْنِينَ وَالْمَرْضَى .

وَلَمْ يَكُنِ الْعَامَّةُ الْأَحْرَارُ يَدْفَعُونَ ضَرَائِبَهُمْ نَقْدًا ، وَإِنَّمَا يُقَدِّمُونَ مَوَادَّ  
غِذَائِيَّةً أَوْ أَقْمِشَةً أَوْ بَضَائِعَ أُخْرَى ، أَوْ يَقُومُونَ بِنَاءِ الْبُيُوتِ وَإِصْلَاحِهَا .  
أَوْ يَجْمَعُ الْأَخْشَابَ وَقُودًا لِنَارِ الْهَيَاكِلِ .

أَمَّا أَفْرَادُ طَبَقَةِ التَّيْكَوْتِلِي ، أَيِ الطَّبَقَةِ الْحَاكِمَةِ ، فَلَمْ يَكُونُوا يَدْفَعُونَ  
الضَّرَائِبَ . وَمِنْهُمْ كَانُ يُخْتَارُ قُودَا الْجَيْشِ ، وَرِجَالُ الدَّوْلَةِ ، وَالْقَضَاةُ ، وَرِجَالُ  
الْبَلَاطِ . وَكَانَتْ تُقَدَّمُ إِلَيْهِمُ الْبُيُوتُ وَالْأَرَاذِي الَّتِي تَلِيقُ بِمَقَامِهِمْ ، وَيُعَامِلُهُمْ  
النَّاسُ بِاحْتِرَامٍ ، فَيُضَيِّفُونَ إِلَى أَشْيَائِهِمْ . كُلَّمَا خَاطَبُوهُمْ ، الْمَقْطَعُ «تَرِن» ،  
وَيَعْنِي عِنْدَهُمْ : يَا سَيِّدِي .

وَمَنْ كَانَ أَبُوهُ مِنْ طَبَقَةِ التَّيْكَوْتِلِي الْحَاكِمَةِ ، يَنْتَمِي تَلَقَائِيًّا إِلَى الطَّبَقَةِ  
الْأَرِسْتُقْرَاطِيَّةِ ، وَيَتَلَقَّى أَفْضَلَ أَشْكَالِ التَّرْبِيَةِ بِاعْتِبَارِهِ وَاحِدًا مِنْ قَادَةِ الْمُسْتَقْبَلِ .  
وَالتَّرْبِيَةُ عِنْدَهُمْ تَعْنِي أَمْرًا وَاحِدًا ، هُوَ التَّدْرِبُ عَلَى الدَّوْرِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ  
الْمَرْءُ ، ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى ، وَفَقَ مَا قَدَرْتُهُ لَهُ تَقَالِيدُ الْأَزْتِكِ وَمَوْرُوثُهُمْ . أَمَّا  
صِيبَانُ الْأَزْتِكِ فَكَانَ مُقَدَّرًا لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا جُنُودًا .

أُسْرَةٌ مِنْ طَبَقَةِ التَّيْكَوْتِلِي دَاخِلَ مَتَرِلْهَا





وكان مقدراً لصبيان الآزتك أن يحاربوا أعداء أمتهم وأن يزودوا الرهبان بمن يحتاجون إليهم من الأسرى ليكونوا قرابين بشرية. وكان يفترض في الصبيان، إلى جانب ذلك، أن يتبعوا خطوات آبائهم، «فيتلقى» الطفل منهم نبأ ذلك في أثناء مراسم تسميته. تغسل القابلة الطفل وتوسده مهدها من الأسل (القش)، ثم ترش فوقه ماء وتصلي طالبة أن يظل بعيداً عن الشر وسوء الطالع. ثم تقدم إلى الطفل نماذج مصغرة عن عدة الجندي، أي الدرع والسهم، ورموز تمثل مهنة والده. فإذا كان الولد مزارعاً قدم إليه عصاً لنبس التراب وكيس حبوب يعلقه المزارعون في أعناقهم وقت البذار.

#### مراسم تسمية الطفل



ابن حرفي يعمل في صنع رأس منقوش بالفسيفساء

أما إذا كان الولد حرفياً فيقدم للطفل أدوات تناسب حرفة والده، فهي أدوات لصناعة أزياء من الريش وأغطية للرأس وعباءات ومراوح وأشرطة تطوق السواعد، أو هي أدوات للرسم، أو لصناعة الأبر النحاسية وصنادير الصيد والفؤوس الصغيرة والمصاغ الذهبي والفضي وبرات (حلقات) المنخر والشفاه. ومن الحرفيين من كان يعمل في صناعة اليشب والفيروز والصخور البلورية والجمشت، وسوى ذلك من الأحجار الكريمة. أو يعمل في حرفة الفخار، والخياطة، والبناء، أو في حياكة السجاد. وأباً تكن الحرفة فالملوف أن يتبع الابن خطى أبيه.

أما الفتيات، فقد كان مقدراً لهن أن يكن زوجات وأمّهات وربات منازل. لذا فقد كن يزودن، في أثناء مراسم تسميتهن، بنماذج مصغرة عن أدوات النساء، كالمغزل وسلّة الأشغال والمكنسة.



وكانت الأمهات بعد مرور خمس سنوات على تسمية بناتهن يبدأن بتدريبهن على ما قسم لهن من دور في الحياة ، كالحياكة ، وجرش الذرة ، وإعداد الطعام والاهتمام بالأطفال . ويقوم الصبيان ، في الوقت نفسه ، بمساعدة آبائهم في الحقول أو في المشاغل ، فيتعلمون المهارات التي يحتاجون إليها في عمل المستقبل .

وتعلم الآزتك أن يقبلوا قواعد حياتهم هذه قبولاً تاماً لأنهم نشأوا على طاعة السلطة طاعة مطلقة . فإنهم كانوا ، منذ أول طفولتهم ، يعلمون طاعة الملك ، ورجال الدين ، والقانون والمسنين في العشيرة ، والوالدين ، وفوق هؤلاء جميعاً يعلمون طاعة ويتزبلوشتلي وغيره من آلهتهم . بل كان عليهم أن يضحوا بأنفسهم قرابين للآلهة إذا طلب إليهم أن يفعلوا ذلك . وكثيرون منهم فعلوا ذلك راضين بل مغتبطين . كانوا يؤمنون أن الآلهة تتغذى بدمهم ، فلتحصل الآلهة ، إذا ، على هذا الدم . واعتقد الآزتك ، على أي حال ، أن الموت في ساحة الوغى أو على مذبح التضحية إنما هو مصير عظيم . فإن الرجل منهم إذا مات مثل هذه الميته أسرع روحه في الارتقاء إلى جنة الشمس ، جنة إلههم ويتزبلوشتلي .

فكيف تعلم الآزتك مثل هذه الطاعة العمياء ؟ تعلموها عن طريق القصص الصارم . فقصص الولد العاصي أو الكسول الجلد أو رفعة فوق نار من الفلفل الحار المحترق وإجباره على استنشاق الدخان المؤذي . أو يكون القصص في غرز أشواك الصبار في جسده ثم ربط يديه وقدميه ورميه يوماً كاملاً فوق أرض مشبعة بالماء .

ومثل هذا القصص كان يُنفذ في البيت والمدرسة على السواء .

فتاة من الآزتك في مرحلة التعلم







تَلْمِيزُ بَنَاتِ الْقِصَاصِ

مَدَارِسُ الْأَزْتِكِ نَوْعَانِ . الْأَوَّلُ لِأَوْلَادِ الْعَامَّةِ ، وَفِيهِ كَانَ الصَّبِيَّانُ يَتَعَلَّمُونَ الْقِتَالَ وَمُمَارَسَةَ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ . وَكَانَ الْأَوْلَادُ ، رَغْبَةً فِي تَنْشِيطِهِمْ عَلَى الْخُشُونَةِ ، يُكْرَهُونَ عَلَى النَّوْمِ فِي غُرَفٍ بَارِدَةٍ يَلْعَبُ فِيهَا أَهْوَاءُ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ إِلَّا غِطَاءُ رَقِيقٌ . وَمَنْ يُسَيِّئِ السُّلُوكَ مِنْهُمْ أَوْ يَتَكَاسَلُ يُعَاقَبُ بِإِحْرَاقِ شَعْرِ رَأْسِهِ وَحِلَاقَتِهِ .

وَفِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنَ الْمَدَارِسِ ، وَيُسَمَّوْنَهَا الْكَالِمِكَاكُ ، يَتَعَلَّمُ أَوْلَادُ الطَّبَقَةِ الْحَاكِمَةِ ، طَبَقَةِ التَّيْكَوْتِي . وَيَعْرِفُ الصَّبِيَّانُ فِي هَذَا النَّوْعِ حَيَاةَ أَشَدِّ قَسَاوَةٍ ، إِذْ يَقُومُونَ بِالتَّنْظِيفِ وَالْكَنْسِ وَحَفْرِ الْأَرْضِ وَسِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْوَضِيعَةِ ، وَيُحْرَمُونَ ، فِي أَيَّامٍ يَخْتَارُهَا لَهُمْ مُعَلِّمُوهُمْ ، مِنَ الطَّعَامِ . .

وَكَانَ عَلَى الصَّبِيَّانِ ، فِي بَعْضِ اللَّيَالِي ، أَنْ يَتَسَلَّقُوا الْجِبَالَ حَيْثُ تَتَلَاعَبُ الْبَاحُ بَيْنَ الصُّخُورِ وَتُعُولُ ، وَحَيْثُ تَتَرَاءَى أَشْبَاحُ يَحْسِبُونَهَا عَفَارِيتَ اللَّيْلِ . نَافَسَ عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي أَنْ يَغْرُزُوا فِي آذَانِهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ أَشْوَاكَ الصَّبَّارِ حَتَّى يَسِيلَ دِمَاؤُهُمْ . كَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ ، فِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى ، أَنْ يَسْتَقِظُوا فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ وَيَرْمُوا بِأَنْفُسِهِمْ فِي بَرَكٍ مِنَ الْمَاءِ الشَّدِيدِ الْبُرُودَةِ . كُلُّ ذَلِكَ ، لِيَتَعَلَّمَ تَلَامِيذُ الْكَالِمِكَاكِ كَيْفَ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْخَوْفِ وَيَهْزَأُونَ بِالْأَلَمِ وَالْمُنْغَصَاتِ .

أَمَّا التَّلْمِيزَاتُ فِي مَدَارِسِ الْكَالِمِكَاكِ لِلبَنَاتِ ، فَكُنَّ يَتَرُكْنَ فِرَاشَهُنَّ مَاتٍ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ لِيُؤَدِّيْنَ الصَّلَاةَ وَيُحْرِقْنَ الْبُخُورَ لِلْإِلَهِةِ . وَكَانَ الْكَلَامُ فِي أَوْقَاتِ الطَّعَامِ وَفِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى مِنَ النَّهَارِ مُحَرَّمًا عَلَيْهِنَّ . وَالْفَتَاةُ الَّتِي تُحَادِثُ صَبِيًّا تُعَاقَبُ عِقَابًا صَارِمًا جِدًّا . وَأَمَّا الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَنِ الْعَمَلِ دُونَ إِذْنٍ ، وَلَوْ لِلْحِظَّةِ وَاحِدَةٍ ، فَإِنَّهَا تُضْرَبُ بِالسِّيَاطِ .

صَبِيٌّ مِنَ الْكَالِمِكَاكِ يَجْلِسُ وَحِيدًا فِي اللَّيْلِ عَلَى سَفْحِ جَبَلٍ





وَيُعَاقَبُ تَلَامِيذُ الْكَامِلِكَاكَ عِقَابًا صَارِمًا عَلَى عِصْيَانِهِمُ الْأَوَامِرَ . ذَلِكَ أَنَّهُ يُتَوَقَّعُ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلًا تَحْتَذِيهِ طَبَقَةُ الْعَامَّةِ . وَهَذَا مَا جَعَلَ عِقَابَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَنْظِمَةِ أَشَدَّ مِنْ عِقَابِ سِوَاهُمْ .

إِنَّ مَنْ يَسْرِقُ أَبَاهُ مِنْ أَوْلَادِ الْعَامَّةِ يُبَاعُ فِي سِوْقِ الْعَبِيدِ . أَمَّا النَّبِيلُ السَّارِقُ فَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ . وَالْعَامِيُّ إِذَا سَكِرَ يُخْلَقُ شَعْرُ رَأْسِهِ وَيُهْدَمُ بَيْتُهُ ، وَإِذَا ثُبَّتْ عَلَيْهِ تَهْمَةُ السُّكْرِ ثَانِيَةً حُكِمَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ . وَأَمَّا النَّبِلَاءُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فُرْصَةٌ ثَانِيَةً ، فَمَنْ وَجِدَ مِنْهُمْ سَكْرَانًا حَكَمَتْ عَلَيْهِ الْمَحْكَمَةُ الْعُلْيَا بِالْمَوْتِ .

وَتَتَعَقَدُ الْمَحْكَمَةُ الْعُلْيَا فِي الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ فِي تِنُوتَشْتِلَانٍ مِنَ الْفَجْرِ حَتَّى مِيَابِ الشَّمْسِ . وَيُرِثُ الْمَحْكَمَةَ قَاضٍ يُسَمُّونَهُ سِيَوَاكُوتَل ، يَلِي الْمَلِكَ رُتَبَةً . وَيُتُّ سِيَوَاكُوتَل ، وَمُعَاوَنُوهُ مِنَ الْقُضَاةِ ، فِي سَائِرِ الْقَضَايَا الْمُتَّصِلَةِ بِالنُّبَلَاءِ وَكِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ . وَيَقْضُونَ بِالْقَضَايَا الْمُعَقَّدَةِ ، كَذَلِكَ ، كَالْخِلَافِ النَّاشِبِ حَوْلَ الْحُدُودِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ الْحُقُولِ . وَأَمَّا الْعَامَّةُ فَلَهُمْ مَحَاكِمُ مَحَلِّيَّةٌ صَغِيرَةٌ ، وَيَقَاضُونَ عَلَى جَرَائِمِهِمُ الْخَطِيرَةِ أَمَامَ مَحَاكِمِ أَعْلَى .

### قَاعَةُ الْمَحْكَمَةِ





وللآزتك أفكار غريبة عما يعتبرونه جرائم خطيرة . فلقد كانوا شديدي  
الحرص على أن يعرف الفرد في المجتمع مكانه فيلزمه . ولذا كان على المرء  
أن يرتدي من الثياب ما يناسب رتبته وطبقته وإلا عوقب بالموت .

وانتعال الصندل مثال على ذلك . ففي داخل البلاط الملكي لم يكن يُسمح  
بانتعال الصندل إلا لرجلين : الملك ورئيس وزرائه . وأما الآخرون فكانوا  
يمشون حفاة . ومخالفة ذلك جريمة عقابها الموت . وفي مدينة تنوتشتلان لم  
يكن يُسمح لغير النبلاء بانتعال الصنادل الثمينة الملونة والمزينة برفائق الذهب .  
ويُسمح لمن أجترح البطولات من الجنود بانتعال الصنادل ، على أن تكون  
رخيصة وعادية . وعلى سائر أفراد الشعب ، سوى هؤلاء . أن يمشوا في شوارع  
المدينة حفاة .



وكانت قوانين دولة الآزتك تطبق بصرامة متناهية . فإما الطاعة وإما  
العقاب الصارم . على أنه كان للتجار من الآزتك قوانين خاصة ، فكانهم  
كانوا يشكلون دولة داخل دولة . فهؤلاء كان لهم ، كل عام ، رحلات  
تجارية طويلة داخل بلاد الآزتك وخارجها . وكان لهم إلههم الخاص ،  
ويسمونه يكتيكونلي (وهو يعني في لغتهم الإله المرشد) ، ومحاكمهم الخاصة ،



فابنتهم الخاصة الشبيهة باتحادات التجار اليوم ، وكانوا يعيشون في العاصمة  
وتشتلان في حيهم الخاص . ولم يكن يُسمح لأحد أن يمارس التجارة أو  
أن ينتسب إلى النقابة إلا إذا كان ابن تاجر . فالتجارة عندهم أشبه بنادٍ محدود  
العضوية بفريق معين .

وإذا جاء وقت إعداد الحملة التجارية ، راح التجار يجمعون الحرس  
بكدسون بضائعهم في مخزون كبير واحد يشتمل ، في جملة ما يشتمل ،  
على الحلى الذهبية والفخاريات وسوى ذلك من أعمال الحرفيين ،



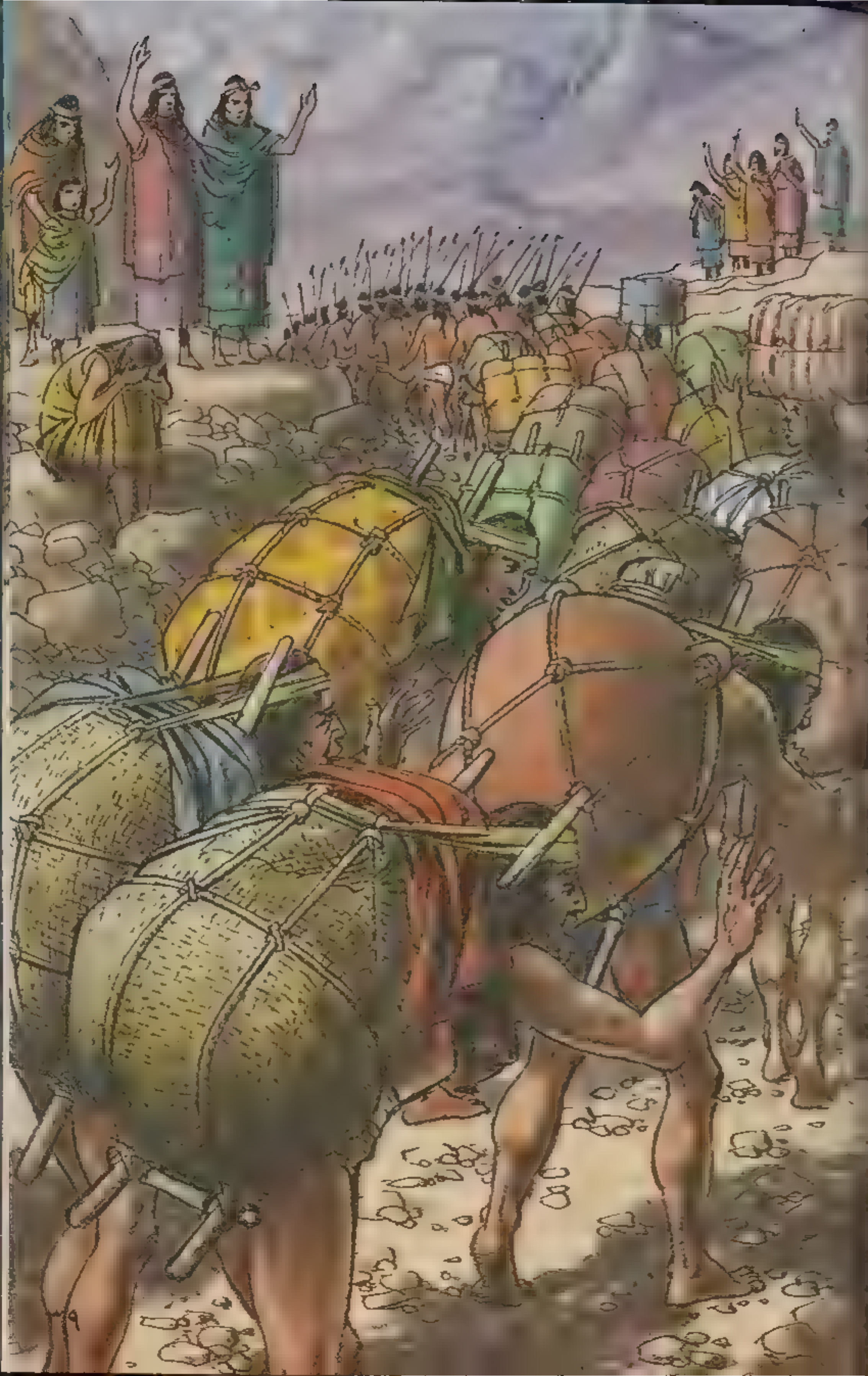
وكان بين البضائع كذلك أعشاب طيبة وعطرية ، وإبر وفرو وثياب وعباءات وبهارات وحيال وأدوية وريش وكميات من الملح والسبع (بلور بركاني أسود) ومواد خام أخرى . وكانت هذه البضائع تُرزم رزمًا جيدًا وتُعدُّ ليحملها حمالو القافلة التجارية على ظهورهم .

وكان اليوم الذي يسبق قيام الحملة التجارية يومًا حزينًا عند التجار وعند عائلاتهم على السواء . فالمخاطر الشديدة التي تتعرض لها قوافل التجارة لا تخفى على أحد . فقد كان على التجار أن يجتازوا الصحارى وممرات في الجبال محفوفة بالمخاطر وأنهارًا سريعة الجريان . أو كانوا يتعرضون لهجمات قبائل معادية ، أو يموتون من شرب الماء الملوث أو الطعام الفاسد أو الإرهاق .

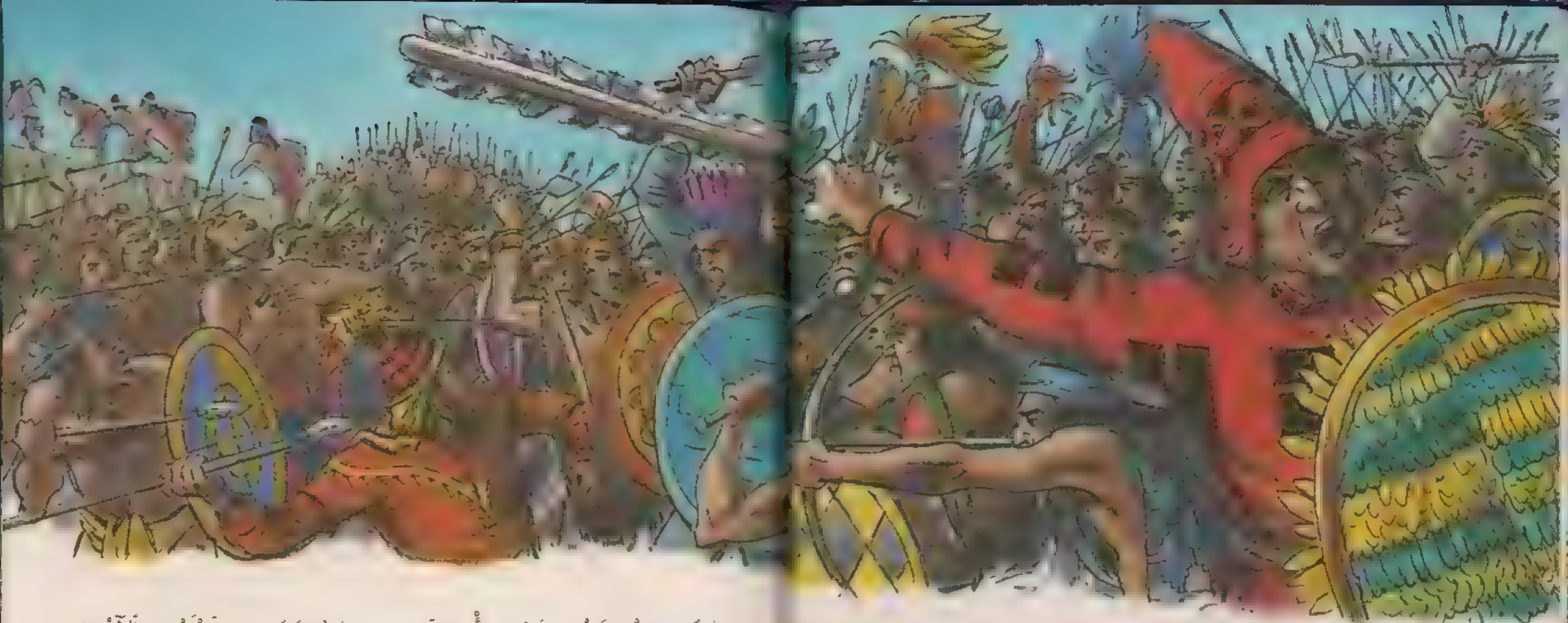
وطبيعي أن تكون النجوم قد استُشِيرت وأن يكون اليوم الذي أُشِيرَ به هو اليوم المناسب . ومع ذلك فالرحيل مدعاة إلى الأسى . فقد تمرُّ سنوات قبل أن يعود التجار إلى زوجاتهم وأولادهم . وكان التجار وأفراد عائلاتهم على السواء ، إظهارًا منهم أنهم سيفكرون بعضهم ببعض في أثناء الغياب ، يغسبون رؤوسهم ويخلقون شعورهم ولا يفعلون ذلك ثانية قبل أن يعود الغائبون إلى بيوتهم سالمين .

يُنسحب التجار بعد ذلك من بيوتهم بهدوء ، وينطلقون في رحلتهم تصاحبهم فرقة قوية من الجنود تحرسهم من هجمات المهاجمين ، وترهب القبائل غير الراجية في المبادلة التجارية . فقد كان تجار الأرتك المستبدين ينظرون إلى من يرفض المتاجرة معهم نظرتهم إلى أعداء . وكانوا لا يتورعون عن شن الحرب على الغرباء لإجبارهم على المبادلة التجارية .

القافلة التجارية تبدأ انطلاقها







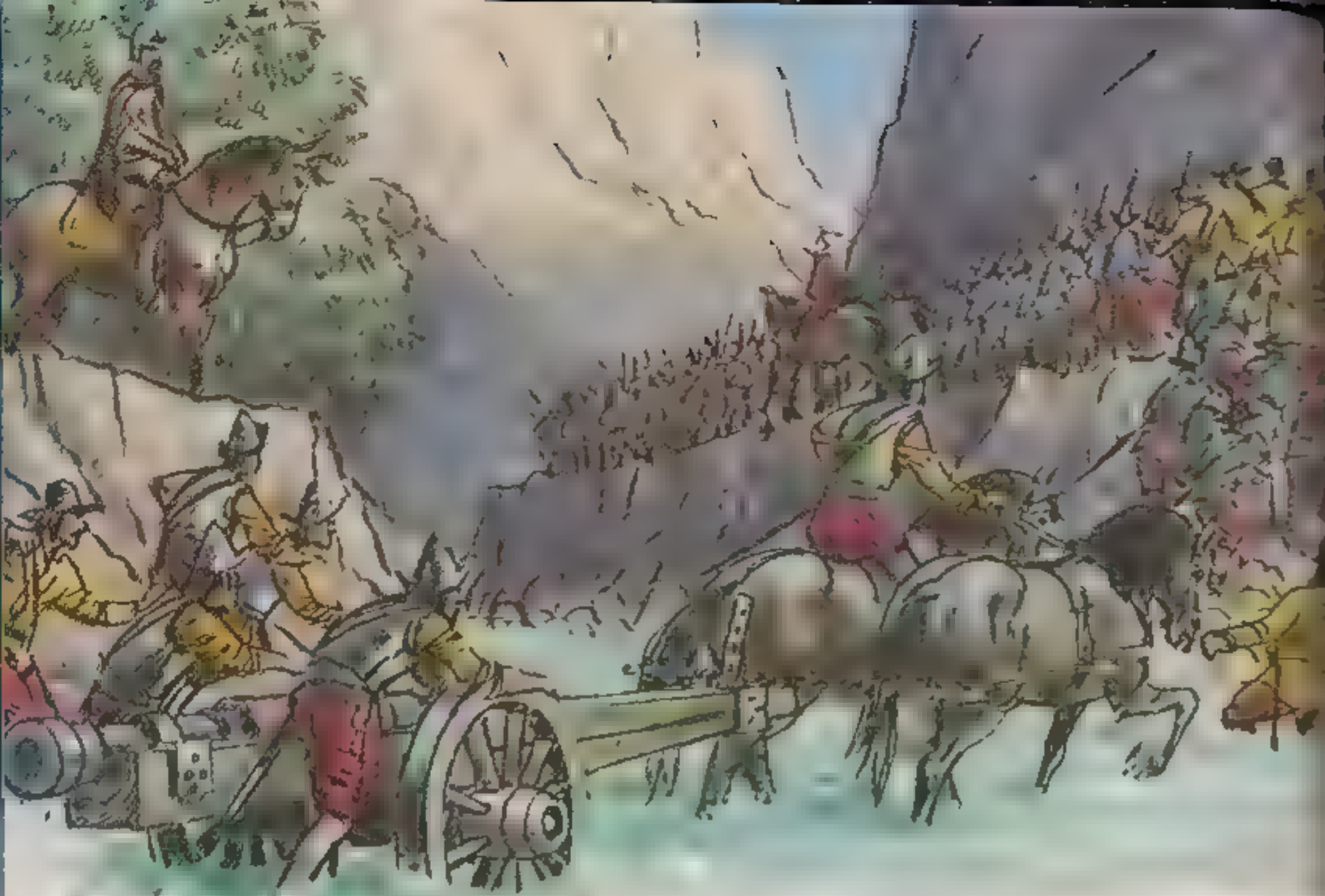
عربة الماكوتيل تكفي لفصل رأس الحصان عن جسده . واستعمل الآزتك  
أيضا قاذفة ترمي رمحا مزودة برؤوس من السبع . وزودت سيماهم . هي  
الأخرى ، وطول الواحد منها ، عادة ، متر ونصف المتر ، برؤوس من السبع .  
وزود جند الآزتك . حماية لهم . ببذلة سمكة مبطنة مصنوعة من القطن  
سقوع بالماء المالح . تمتد من العنق إلى الركبتين . وأما الدروع فكانت عادة  
مستديرة . قطر الواحدة منها سبعة وسبعون سنتيمترا .

ولعل أحد أشد أسلحة الآزتك فعالية مظهرهم والجلبة التي كانوا يحدثونها  
قبل بدء المعركة . فقد دأبوا على إفزع أعدائهم بقرع الطبول أو بالنفخ في  
صدف المحار لإصدار نغمات عميقة مرعبة ، أو باستخدام صفارات تطلق  
صفيرا حادا ثاقبا مروعا .

ولم يكن التجار مرهوبي الجانب مكروهين لممارستهم فرض المبادلة  
التجارية بالقوة فحسب . وإنما لأنهم كانوا . كذلك . يتجسسون على  
القبائل من غير الآزتك وينقلون أخبارها إلى حكومة تنوتشتلان . فيجمعون  
في تجوالهم ، المعلومات عن ثراء المناطق وقوة أهلها العسكرية ، ويرفعون  
تقريرهم إلى الملك . فإذا كانت تلك المناطق من الغنى بحيث تبرر العناء ،  
أرسل الملك جيشا يغزوها .

وكان جند الآزتك ، كما عرفت القبائل المغلوبة على أمرها . خارقين ،  
يستعملون أسلحة فتاكة . ومن أسلحتهم الماكوتيل ، وهو سلاح شبيه بسيف  
وهراوة معا ، مؤلف من وتد خشبي صلب طوله حوالي المتر ركبت عليه نصال  
حاددة من السبع . وما كان أشد ذهول الإسبان ، فيما بعد ، حين اكتشفوا أن





وكان جيش الآزتك ، في مثل هذا الجوّ المرعب ، يندفع بقيادة فرسان  
تغطي رؤوسهم أغطية ذات ريش ، وتلف أجسادهم جلود البغور (الفير المرقط)  
أو جلود غيره من الحيوانات المفترسة . وفوق حشود الآزتك كانت ترتفع  
رايات ذات ريش تطل منها على جمهور الأعداء وجوه نسور وفهود مرسومة  
رسمًا يوحي بالشراسة . ولطالما هرب الأعداء فرعًا من مظهر جيش الآزتك  
المرعب . أمّا أولئك الذين كانوا يؤثرون القتال فقد كان جيش الآزتك ،  
أقوى جيش في بلاد المكسيك كلها ، ينزل بهم هزيمة ساحقة .

ولقد ظلت الحال كذلك حتى العام ١٥١٩ عندما أبحر كورتيز من كوبا ،  
وكانت آنذاك مستعمرة إسبانية ، بأسطول يتألف من ١١ سفينة ، و ٥٠٨ جنود ،  
ومئة بحار ، و ١٦ خيالا ، و ١٤ مدفعًا ، متجهًا إلى المكسيك . والإسبان  
أشداء تواقون إلى المغامرة .

الشاطئ الذي نزل عنده الإسبان

لقد اندفع الإسبان إلى بلاد المكسيك تجذبتهم أخبار مغربة عن كنوز  
ذهب والفضة والأحجار الكريمة . كذلك رغبوا في أن يضموا المكسيك إلى  
مجموعة المستعمرات التي كانوا قد استولوا عليها في العالم الجديد ، وهي جزر  
بحر الكاريبي والبرازيل وبنما . وكانت إمبراطورية الآزتك في بلاد المكسيك  
لجائزة الكبرى التي يمكن أن يغمها المستعمر . لذا عقد كورتيز العزم على  
أن يصبح سيد هذه الإمبراطورية .

كان على كورتيز . قبل كل شيء ، أن يصل إلى قلب الإمبراطورية ، أي  
عاصمة تنوتشتلان . ويتطلب ذلك . بطبيعة الحال ، رحلة شاقة خطيرة عبر  
جبال ترتفع في أماكن إلى علو ٥٤٨٦ مترًا . وبدأ كورتيز ، في أواسط آب  
(أغسطس) من عام ١٥١٩ ، هو و ٤٠٠ جندي إسباني ، حملته عبر السهل  
لساحلي الحار . وسرعان ما بدأ الإسبان يتسلقون جبالًا تغطيها غابات متشابكة ،  
وصلوا بعدها إلى سهل جبلي مرتفع .





وكانت الرياح القارسة تهز عظام الإسبان في أثناء صرايحهم مع الممرات  
أجيلة. كان التنفس في ذلك الارتفاع ثقيلاً ، فراحوا يتعثرون لاهثين  
ورؤوسهم تدور ، بينما أخذت القبائل المعادية مهاجمهم ، بين حين وحين ،  
وتقدفهم بالحجارة وبرشاش من السهام السامة. فأت منهم العشرات ،  
وراح الناجون يتدحرون ويطلبون كورتيز بالارتداد. غير أن كورتيز رفض  
التراجع. وأخيراً وصلوا ، في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) إلى الممر الواقع  
بين البركانين التوأمين. بوبوكيتيل وإيستكيواتل. ثم انحدروا إلى وادي  
المكسيك مخترقين غابة أشد تشابكاً من سابقتها. وقاد كورتيز رجاله بعد  
ذلك ستة أيام. وبعد أن كن مر على بدء الحملة أحد عشر أسبوعاً مخيفاً.  
عبر واحد من الطرق الحجرية العظيمة الموصلة إلى تنوتشتلان.

وأستقبل الإسبان منظر مدهش. فلقد احتشد الآزتك في الشوارع وعلى  
سطوح وتراحموا في قواربهم فوق البحيرة وفي القنوت. وبرز الأغنياء  
منهم بحليهم الذهبية والفضية وبأغطية للرأس وعباءات مرصعة بالجواهر  
ومزينة بالريش أجمل زينة. ورأى كورتيز. فحاة. محقة فخمة تقرب منه.  
وقد زينت بالريش الأخضر وبزينات الذهب والفضة. وعلى تلك المحقة جلس  
ملك مكثيزوما شوكويتسين ، وقد ارتدى ثوباً ملكياً فاخراً ، وانتعل صندلاً  
ذهبياً مطعماً بالأحجار الكريمة. وتوقفت المحقة ونزل منها مكثيزوما ومشى فوق  
بساط من عباءات فرشها لخدم. وأتجه نحو كورتيز. يخف به أربعة نبلاء  
يرفعون ظلة من الريش الأخضر فوق رأسه ، وعيونهم عالقة بالأرض ،  
فالتطلع إلى الملك كان في ظنهم خطيئة.

المناطق التي اخترقها الإسبان ،  
ويظهر في الصورة بركان بوبوكاتيتل



وكاذِ الإسبانُ ألا يُصدِّقوا آذانَهُمْ . فلقد بدا أنَّ مُكتيزوما يحسبُهُم إِلَهَةً  
وأنَّهُ يَهَبُهُمْ مَمْلَكَتَهُ بِمِلءِ إِرَادَتِهِ .

بَلْ إِنَّ الْآزْتِكَ نَظَرُوا إِلَى أَلْجِيَادِ نَفْسِهَا نَظَرَتُهُمْ إِلَى مَخْلُوقَاتِ سَمَويَّةٍ ،  
فَأَعَدُّوا لَهَا فِرَاشًا مِنَ الْأَزْهَارِ تَنَامُ عَلَيْهِ .

أَدْرَكَ كُورْتِيزَ عَلَى الْفُورِ الْخَطَأَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْآزْتِكُ . فَقَدْ كَانَ سَمِعَ  
تِلْكَ النُّبُوَّةَ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّتِي تَزْعُمُ أَنَّ إِلَهُهُمْ الْأَبْيَضَ الْبَشَرَةَ كَيْتْرُلْكُواتِلَ  
سَيَعُودُ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ مُطَالِبًا بِإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْآزْتِكِ . وَالْإِسْبَانُ بِيضُ  
الْبَشَرَةِ وَجَاؤُوا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، مِنْ أوروْبَّةَ ، عَبْرَ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ .

وكانَ عَلَى كُورْتِيزَ ، رَغْمَ ذَلِكَ ، أَنْ يَكُونَ حَذِرًا . فَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا قَلَّةٌ مِنَ  
الرَّجَالِ ، يُحِيطُ بِهِمْ آلافٌ مِنْ جُنْدِ الْآزْتِكِ فِي تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ الْجَبَلِيَّةِ الْعَالِيَةِ  
الْغَرِيبَةِ . وَلَوْ أَنَّ الْآزْتِكَ أَدْرَكُوا ، فَجَاءَهُ ، غَلَطَتُهُمْ لَأَنْقَلَبُوا عَلَى الْإِسْبَانِ  
وَأَبَادُوهُمْ .

وَحَمَى كُورْتِيزَ نَفْسُهُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْمُجَازَفَةِ بِأَنْ أَحْتَجَزَ ، بُعِيدَ دُخُولِهِ  
تِنُوتِشْتِلَانَ ، الْمَلِكِ مُكْتِيزُومَا . وَبِذَلِكَ صَارَ فِي إِمْكَانِهِ أَنْ يُصْدِرَ إِلَى الْآزْتِكِ  
أُوامِرُهُ مِنْ خِلَالِ الْمَلِكِ الْأَسِيرِ ، فَيُطِيعُوا جَرِيًّا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي طَاعَةِ الْمَلِكِ  
طَاعَةً عَمِيَاءَ . وَهَكَذَا كَانَ .

وطلَّبَ كُورْتِيزَ أَنْ يُقْسِمَ الْآزْتِكُ يَمِينَ الْوَلَاءِ لِلْمَلِكِ إِسْبَانِيَا شَارْلَ . فَأَمَرَ  
مُكْتِيزُومَا نُبْلَاءَهُ بِأَنْ يُقْسِمُوا الْيَمِينَ ، فَفَعَلُوا . وَبَدَأَ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا تَسِيرُ سَيْرًا  
هَيِّنًا . وَهَذَا كُورْتِيزَ نَفْسُهُ عَلَى حَظِّهِ الْعَجِيبِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَحْلَمْ يَوْمًا بِأَنْ يَكُونَ غَزُو  
بِلَادِ الْمَكْسِيكِ بِمِثْلِ هَذِهِ السَّهُولَةِ .



غِطَاءُ رَأْسٍ رِيشِي يُظَنُّ أَنَّهُ كَانَ لِلْمَلِكِ مُكْتِيزُومَا

تَهَادَى الْمَلِكُ وَكُورْتِيزَ الْقَلَائِدَ ، ثُمَّ دَخَلَ الْإِسْبَانُ الْعَاصِمَةَ تِنُوتِشْتِلَانَ .  
وَفِي الْعَاصِمَةِ رَأَوْا مَنَاطِرَ أَشَدَّ إِذْهَالًا . ففَوْقَ الْمَاءِ أَحْوَاضٌ عَائِمَةٌ مِنَ الْأَزْهَارِ  
الزَّكِيَّةِ الرَّائِحَةِ ، ضَخْمَةٌ وَمَلُونَةٌ . وَمِنْ حَوْلِهِمْ وَقَفَ النُّبْلَاءُ يُحْيَوْنَهُمْ بِأَكَالِيلِ  
الزَّهْرِ ، وَأَطْوَاقِ الذَّهَبِ ، وَبِعُقُودِ وَمَوَادِّ بَدِيعَةِ الْحَيَاكَةِ .

ثُمَّ كَانَتْ الْمُفَاجَأَةُ الصَّاعِقَةُ ؛ فَقَدْ آنَحَى مُكْتِيزُومَا أَمَامَ كُورْتِيزَ ، وَقَالَ  
لَهُ : «سَيِّدِي ، أَتَيْتَ تَمْلِكَ عَرْشِكَ .. وَهَا هُوَ الشَّعْبُ جَاثٍ بَيْنَ يَدَيْكَ ،  
وَفِي حِمَايَتِكَ .. أَهْلًا بِكَ ، يَا سَيِّدِي ، فِي مَمْلَكَتِكَ !»



ثُمَّ أَخَذَتِ الْأُمُورُ بِالتَّغْيِيرِ . فَقَدْ بَلَغَتْ كُورْتِيز ، فِي أَيَّارَ (مايو) مِنْ عام ١٥٢٠ ، أَنْبَاءً مُقْلِقَةً . إِذْ وَصَلَتْ إِلَى خَلِيجِ الْمَكْسِيكِ قُوَّةٌ إِسْبَانِيَّةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ ١٤٠٠ رَجُلٍ بِقِيَادَةِ يَانْفِلُو نَارْقَايِيز ، خَصْمِ كُورْتِيزِ الْقَدِيمِ . وَحَمَلَ نَارْقَايِيز مَعَهُ أَوَامِرَ مِنْ حَاكِمِ كُوبَا الْإِسْبَانِيِّ ، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ مُبْغِضِي كُورْتِيز ، بِالْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ ، وَعَزْلِهِ عَنْ حُكْمِ الْمَكْسِيكِ . فَاضْطُرَّ كُورْتِيز إِلَى مُغَادَرَةِ تِنُوتْشِتْلَانِ

الْإِسْبَانِ يُحْطَمُونَ صَنَمًا أَزْتِكِيًّا



لِمُوْاجَهَةِ ذَلِكَ الْخَطَرِ الطَّارِئِ . وَتَغَلَّبَ عَلَى نَارْقَايِيز دُونَ مَشَقَّةٍ ، وَعَادَ إِلَى تِنُوتْشِتْلَانِ فَوَصَلَهَا فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ حَزِيرَانَ (يُونِيهِ) . غَيْرَ أَنَّ غِيَابَهُ تَسَبَّبَ بِحُدُوثِ كَارِثَةٍ . فَإِنَّ الْإِسْبَانِ ، بِغِيَابِ قَائِدِهِمْ ، تَخَلَّوْا عَنْ أَنْضِبَاتِهِمْ فَحَطَّمُوا الْأَصْنَامَ ، وَسَرَقُوا أَهْيَا كُلِّ ، وَأَكْرَهُوا الْآزْتِكِ عَلَى اعْتِنَاقِ النَّصْرَانِيَّةِ .

جُنَّ جُنُونُ الْآزْتِكِ ، وَشَنُّوا ، بُعِيدَ رُجُوعِ كُورْتِيز ، هُجُومًا عَلَى الْإِسْبَانِ فَقَتَلُوا ثُلُثَهُمْ وَدَحَرُوا الثَّلَاثِينَ الْبَاقِينَ إِلَى خَارِجِ تِنُوتْشِتْلَانِ . وَلَمَّا حَاوَلَ مُكْتِيزُومَا إِيقَافَ الْقِتَالِ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ وَمَاتَ مُتَأَثِّرًا بِجِرَاحِهِ .

غَضِبَ كُورْتِيزُ غَضَبًا شَدِيدًا ، فَقَدْ كَادَتْ إِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْآزْتِكِ أَنْ تَقَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَمَّا الْآنَ فَعَلَيْهِ أَنْ يُحَارِبَ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا . وَأَعَدَّ خِطَّةَ الْمُهْجُومِ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ .

أَمَرَ أَوَّلًا بِنَاءِ سُنْفٍ لِيَتِمَكَّنَ مِنْ قَصْفِ تِنُوتْشِتْلَانِ بِالْمَدَافِعِ مِنَ الْبَحِيرَةِ . ثُمَّ اسْتَغْلَلَ الْحَقْدَ الَّذِي يَكُنُّهُ أَتْبَاعُ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْمَغْلُوبِينَ عَلَى أَمْرِهِمْ ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ الْانْضِمَامَ إِلَيْهِ . وَقَدْ فَعَلَ آلَافٌ مِنْهُمْ ذَلِكَ رَاضِينَ ، إِذْ أُتِيحَتْ لَهُمْ آخِرًا ، بِمُسَاعَدَةِ الْإِسْبَانِ ، فُرْصَةُ الْإِنْتِقَامِ .

وكَانَ كُلُّ شَيْءٍ ، فِي نِهَايَةِ الْعَامِ ١٥٢٠ قَدْ أُعِدَّ . وَفِي السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ كَانُونِ الْأَوَّلِ (دَيْسَمْبَر) شَرَعَ كُورْتِيزُ مَرَّةً أُخْرَى فِي التَّوَجُّهِ إِلَى تِنُوتْشِتْلَانِ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ ٥٤٠ جُنْدِيًّا مِنَ الْمَشَاةِ ، وَ ٤٠ خَيْالًا وَ ١٠٠,٠٠٠ مِنْ رِجَالِ الْقَبَائِلِ الْمَحْكُومَةِ . وَلَقَدْ دَمَّرَ الْحِصَارُ الدَّمَوِيَّ الطَّوِيلُ ، الَّذِي تَلَا ذَلِكَ الزَّحْفَ ، الْجُزْءَ الْأَكْبَرَ مِنْ مَدِينَةِ تِنُوتْشِتْلَانِ الْجَمِيلَةِ ، وَأَدَّى إِلَى قَتْلِ حَوَالِي ٢٤٠,٠٠٠ مِنْ سُكَّانِهَا . وَمَنَعَ رِجَالُ كُورْتِيزِ عَنِ الْمَدِينَةِ ، فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ، الْمَاءَ وَالْغِذَاءَ .



ظَلَّتْ مِدْفَعِيَّةُ الْإِسْبَانِ أَيَّامًا مُتَوَاصِلَةً تَقْصِفُ الْعَاصِمَةَ الْآزْتِكِيَّةَ بِرَجَمَاتِ الْقَذَائِفِ . وفيما أَخَذَ الْإِسْبَانُ وَحُلُفَاؤُهُمْ يَشْقُونَ طَرِيقَهُمْ عَبْرَ تِنوتشتلان راحَ الْآزْتِكُ يُقَاوِمُونَ مُقَاوِمَةً ضَارِيَةً . أَخَذُوا يَرْمُونَ الْمُهَاجِمِينَ بِأَعْدَادٍ هَائِلَةٍ مِنْ السَّهَامِ وَالْحِجَارَةِ وَسِوَى ذَلِكَ مِنَ الْمَقْدُوفَاتِ ، وَيُقَدِّمُونَ مَنْ يَقَعُ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْإِسْبَانِ ، قَرَابِينَ عَلَى مَذْبَحٍ وَيَتْرِيلُو يَتَشْتَلِي ، وَيُصَلُّونَ ، لَيْلًا وَنَهَارًا ، طَالِبِينَ مِنَ إِلَهِهِمْ أَنْ يُنْجِدَهُمْ . وَكِنْ عَبَثًا كَانُوا يَطْلُبُونَ . فَلَقَدْ وَاصَلَ جَيْشُ كُورْتِيز شَقَّ طَرِيقَهُ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ قَاتِلًا كُلَّ مَنْ يُوَاجِهُهُ وَمُدَمِّرًا كُلَّ شَيْءٍ . وَسُرْعَانَ مَا سُدَّتْ قَنَوَاتُ الْمَدِينَةِ بِحُطَامِ الْبُيُوتِ الْمُهْدَمَةِ وَالْهَيَاكِلِ وَأَكْوَامِ جُثَثِ الْقَتْلَى .

وَأَنْتَهَى ، أَخِيرًا ، فِي الثَّلَاثِ عَشَرَ مِنْ آبَ (أَغُسْطُس) مِنْ عَامِ ١٥٢١ ، كُلُّ شَيْءٍ . فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سَقَطَتْ تِنوتشتلان ، أَوْ قُلِ الْحُطَامُ الْمَمْرُوجُ بِالْدَمِّ وَدُخَانِ الْحَرَائِقِ ، فِي يَدِ الْإِسْبَانِ . وَهَكَذَا أَنْتَهَتْ إِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْآزْتِكِ ، وَأَنْتَهَى مَعَهَا عَالَمُهُمُ الَّذِي عَرَفُوهُ . فَقَدْ حَاوَلَ الْإِسْبَانُ ، الَّذِينَ حَكَمُوا الْمَكْسِيكَ حَتَّى ١٨٢١ ، تَدْمِيرَ كُلِّ أَثَرٍ مِنْ آثَارِ الْحَضَارَةِ الْآزْتِكِيَّةِ . هَدَمُوا الْهَيَاكِلَ وَحَطَّمُوا الْأَصْنَامَ وَأَقَامُوا عَلَى أَنْقَاضِهَا مَعَابِدَ لَهُمْ . وَبَنَوْا فَوْقَ حُطَامِ تِنوتشتلان مَدِينَةً جَدِيدَةً أَسَمَوْهَا مَدِينَةُ الْمَكْسِيكِ . أَحْرَقُوا كُتُبَ كَهَنَةِ الْآزْتِكِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَأَكْرَهُوا الشَّعْبَ عَلَى اعْتِنَاقِ النَّصْرَانِيَّةِ . وَتَمَزَّقَتْ رَوَابِطُ الْعَشَائِرِ الْآزْتِكِيَّةِ الْمُورُوثَةِ ، وَصَارَ أَفْرَادُ الْعَشَائِرِ رَقِيقًا وَعَبِيدَ أَرْضٍ عِنْدَ سَادَتِهِمْ الْإِسْبَانِ .

وَلَقَدْ تَصَرَّفَ الْإِسْبَانُ هَذَا التَّصَرُّفَ لِأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى الْآزْتِكِ نَظَرَتَهُمْ إِلَى شَعْبٍ شَرِيرٍ مُتَعَطِّشٍ لِلدَّمَاءِ . وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُؤَسِّفِ أَنْ يَكُونَ الْإِسْبَانُ فِي أَثْنَاءِ تَدْمِيرِهِمُ الشَّرَّ قَدْ دَمَرُوا جَانِبًا كَبِيرًا مِنْ بَهَاءِ حَضَارَةِ الْآزْتِكِ وَإِجْزَائِهَا .



مَعْبَدٌ فِي مَدِينَةِ الْمَكْسِيكِ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ

لَمْ يَبْقَ الْيَوْمَ كَثِيرٌ مِمَّا يُذَكِّرُ بِتِلْكَ الْقَبِيلَةِ الْفَقِيرَةِ الْجَوَالَةِ الَّتِي أَنْشَأَتْ إِحْدَى أَوْلِيَّاتِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّاتِ الْعَظِيمَةِ فِي الْقَارَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ . إِلَّا أَنَّهُ ، مَعَ ذَلِكَ ، لَا يَزَالُ عَدَدٌ مِنْ تَمَاثِيلِ آلِهَةِ الْآزْتِكِ بَاقِيًا ، يُذَكِّرُ مِنْ خِلَالِ تَعَابِيرِ الْوَجْهِ الْقَاسِيَةِ الشَّرْسَةِ بِصَلَابَةِ الْعَقِيدَةِ الْآزْتِكِيَّةِ وَقُوَّتِهَا . وَيُظْهِرُ التَّقْوِيمُ الْحَجَرِيُّ الْمَنْقُوشُ ، أَوْ مَا كَانَ يُسَمَّى عِنْدَهُمْ بـ «حَجَرِ الشَّمْسِ» ، وَهُوَ الَّذِي أَكْتُشِفَ فِي مَوْقِعِ تِنوتشتلان ، عِبَقَرِيَّةَ الْآزْتِكِ فِي الْفَلَكِ . وَأَمَّا غِطَاءُ الرَّأْسِ الرَّيْشِيُّ الْأَخْضَرُ ، الَّذِي يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ ١٢٢ سَنْتِمِترًا (وَتَرَى صُورَتَهُ فِي الصَّفْحَةِ ٤٦) ، فَإِنَّهُ يُرَى بَعْضًا مِمَّا شَاهَدَهُ الْإِسْبَانُ مِنْ عَظَمَةِ وَرُوءٍ حِينَ دَخَلُوا الْعَاصِمَةَ آلِهَةً وَمَكَّنُوا فِيهَا فَاتِحِينَ .





خليج المكسيك



تينوتشتلان

كوكتوك



المحيط الهادي

## المكسيك في العام 1519

تُري هذه الخريطة بلاد المكسيك زمن الغزو الإسباني ، والطريق التي أتبعها كورتيز في حملته .

أما الرسم الجانبي فيُري العاصمة - الجزيرة تينوتشتلان بشبكة قنواتها وشوارعها .

